



مكتبة

سلسلة مدرسة الحياة

عمل تحبه

تحرير: آلان دو بوتون

ترجمة: الحارث النبهان



مدرسة الحياة
THE SCHOOL
OF LIFE

سلسلة مدرسة الحياة

عمل تحبه

مكتبة

t.me/soramnqraa

الكتاب: عمل تحبه

سلسلة مدرسة الحياة بإشراف آلان دو بوتون

ترجمة: الحارث النبهان

عدد الصفحات: 208 صفحات

التقييم الدولي: 2 - 228 - 472 - 614 - 978

الطبعة الأولى: 2023

هذه ترجمة مرخصة لكتاب

A JOB TO LOVE

A JOB TO LOVE Copyright © 2017 by The School of Life

جميع حقوق هذه الترجمة مرخصة لدار التنوير © دار التنوير 2023

الناشر

دار التنوير

الإمارات العربية المتحدة: مدينة الشارقة للنشر - المنطقة الحرة.

هاتف: 0097153976948

تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com

مصر: القاهرة - 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar - altanweer.com

موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

سلسلة مدرسة الحياة

بإشراف: آلان دو بوتون

مكتبة

t.me/soramnqraa

عمل تحبه

ترجمة

الحارث النبهان

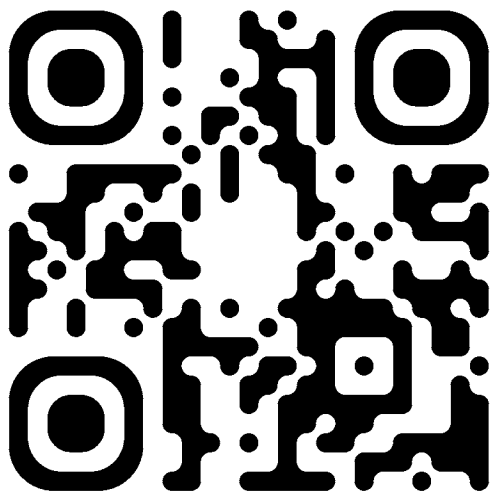


إلى جانب تمتّع الإنسان بعلاقة مع شريك في الحياة تحقّق له الإشباع والرضا، يمكن القول إن وجود عمل يحبّه هو واحدٌ من أهم مقتضيات الحياة الراضية. وللأسف، ثمة صعوبة كبيرة جدًّا في أن يفهم المرء نفسه فهمًا كافيًا يتيح له إدراكًا واضحًا للوجهة التي ينبغي أن يوظّف فيها قدراته. لقد وضعنا هذا الكتاب بغية المساعدة في تجاوز بعض هذه الصعاب بحيث يكون دليلًا على كيفية توصلنا إلى فهم أفضل لأنفسنا وتحديد العمل المناسب لنا. بقدر كبير من التعاطف والروح العملية العميقة، يأخذ الكتاب بأيدينا كي نكتشف مواهبنا الحقيقية ونفهم تطلّعاتنا ورغباتنا المشوّشة قبل فوات الأوان.

سلسلة مدرسة الحياة

سجل في مكتبة

واحصل على بقية كتب السلسلة



انضم لـ مكتبة .. اصحح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابطا

المحتويات

9	مقدمة
25	عقبات في وجه امتلاك أهداف
51	مواطنُ المَسْرَّة في العمل
91	عقبات ومثبَّطات
159	نتائج

أ- كيف صار الإنسان راغباً في عمل «يستطيع أن يحبه»
 إن من أغرب المعالم في زماننا ذلك الافتراض المتكرر
 كثيراً بأن علينا أن نكون قادرين على العثور على عمل لا
 «نظيقه» فحسب، ولا نتحمله من أجل المال فحسب، بل نقدّره
 تقديراً عميقاً لما يوفره لنا من درجة رفيعة من الإحساس بالغاية
 والرفقة والإبداع.

ونحن الآن لا نرى أية غرابة في الفكرة المعروفة القائلة إن
 علينا أن نحاول العثور على عمل نحبه.

من الممكن أن يكون المرء شديد الميل إلى هذه الرغبة لكنه
 يرفض اعتبارها عادية أو سهلة التحقق، وأن يظل مصراً على
 أنه لا بد لنا - إن أردنا أن تكون لنا فرصة في تحقيقها - أن ننفق
 قدرًا وافرًا من الزمن والمخيلة والجهد العقلي المركّز كي نفهم
 ما تنطوي عليه من تعقيدات.

فعلى امتداد القسم الأكبر من التاريخ الماضي، كان التساؤل
 عما إذا كنا نحب عملنا يبدو أمرًا شديد الغرابة، أو باعثًا على
 السخرية. كنا نفلح الأرض ونرعى القطعان ونعمل في المناجم
 ونفرغ خزانات المراحيض. وكنا نعاني. لم يكن القنّ أو مالك
 الأرض الصغير قادرًا على التطلع إلى ما يتجاوز لحظات
 معدودة من الرضا، لحظات واقعة - من غير ريب - خارج

ساعات عمله: مهرجان شهر الحصاد في السنة القادمة، أو يوم زفاف الابن الأكبر الذي لا يزال الآن في السادسة من العمر.

وكان مفاد النظرة التي ترافق ذلك أن المرء سيكف عن العمل إن صار لديه مال كاف. كانت الطبقات المتعلّمة عند الرومان القدامى (التي ظلت أراؤها مهيمنة على امتداد قرون كثيرة)، ترى أن كل عمل مدفوع الأجر مُهينٌ بطبيعته. ومما له دلالة كبيرة أن الكلمة الرومانية الدالة على الأعمال كانت «negotium» التي تعني حرفيًا «نشاط لا متعة فيه». وكانوا يرون أن وقت الفراغ والراحة حين لا يفعل المرء شيئًا، أو حين يخرج للصيد أو يقيم حفل عشاء، هو الأساس الوحيد للسعادة في الحياة.

ثم حلّت نهاية العصور الوسطى فبدأت مرحلة تحوّل استثنائي: راح قسم من الناس يعمل من أجل المال ومن أجل «الرضا» معًا. وقد كان الفنان تيتيان (1485-1576) من أوائل الذين نجحوا في السير خلف هذا التطلع الذي كان غير مألوف على الإطلاق. فمن جهة أولى، كان تيتيان يستمتع في عمله بما يغدقه عليه الإبداع من مسرّات: تصوير كيف يسقط النور على كمّ ثوب، أو البحث في سر ابتسامة صديق. لكنه أضاف إلى هذا أمرًا «شديد الغرابة»: كان بالغ الاهتمام بأن يتلقّى أجرًا طيبًا. وكان شديد المهارة في ما يتصل بالتفاوض على عقود من أجل إنتاج اللوحات، كما ازداد إيراده المالي (وربحه أيضًا) من خلال إقامة نظام من المساعدين، على طريقة المصانع، ممن كانوا متخصصين في مراحل مختلفة من عملية الإنتاج، وذلك كما في رسم الستائر مثلًا (استأجر خمسة شباب من فيرونا كي

يرسموا الستائر في أعماله). وقد كان أيضًا واحدًا من مطلقي فكرة عميقة جديدة تمامًا مفادها أن العمل يمكن أن يكون - بل ينبغي أن يكون - شيئًا يحب المرء فعله، فضلًا عن وجوب تحقيقه دخلًا لائقًا. كانت هذه فكرة ثورية لم تلبث أن انتشرت شيئًا بعد شيء حتى عمّت العالم كله. وفي يومنا هذا، تتبوأ تلك الفكرة مكانة عليا وتلَوّن تطلعاتنا وآمالنا ربما حتى من غير أن نلاحظ ذلك؛ ثم إنها تساعدنا في تحديد الآمال والخيبات لدى محاسب في بالتيমور أو مصمّم ألعاب في لايمهاوس.

لقد أدخل تيتيان إلى النفسية الحديثة عامل تعقيد جديدًا. ففي ما مضى، كان عليك أن تختار بين الرضا الشخصي من خلال صنع أو فعل أشياء بصفتك هاويًا من غير توقع أن يدرّ عليك جهدك مالًا، أو أن تعمل من أجل المال ولا تبالي كثيرًا بما إذا كنت مستمتعًا بعملك أم غير مستمتع. أما الآن، ونتيجة إيديولوجيا العمل الجديدة، فلم يعد أيّ من الخيارين مقبولًا. صار مطلوبًا من هذين التطلّعين معًا - المال، والرضا والإشباع الداخليين - أن يتّحدا. فمن حيث الجوهر، يعني العمل الجيد عملاً يلقي صداه في أعماق الذات من ناحية، ويستطيع إنتاج سلعة أو خدمة تستطيع تلبية الحاجات المادية لمن ينتجها من ناحية أخرى. لقد خلق هذا المطلب المزدوج صعوبة خاصّة في حياتنا الحديثة: علينا الآن أن ننشد، في وقت واحد، تطلّعين اثنين شديدي التعقيد قد يصعب كثيرًا أن نفلح في الموازنة بينهما. علينا أن نشبع الروح ونرضيها وأن ندفع مالا مقابل وجودنا المادي.

مما يثير الاهتمام حقًا هو أن هذا التحوّل لم يتوقّف عند حدود نشوء تطلعات كبيرة عندنا تجمع بين الروحي والمادي في ما يخصّ العمل المثالي وحده. لقد حدث أمر مشابه جدًّا في ما يخصّ علاقاتنا. فخلال القسم الأكبر من تاريخ بني البشر، كان أمرًا بالغ الغرابة افتراض أن على المرء أن يحب (لا أن يحتمل فقط) الزوجة أو الزوج. كانت للزواج غاية عملية أصيلة: جمع قطعتين متجاورتين من الأرض، والعثور على من تكون ماهرة في حلب الأبقار، أو على إنجاب وتنشئة أطفال أصحاء. كان الحب الرومانسي أمرًا بعيدًا عن الأذهان (لعله يكون شيئًا لطيفًا ذات صيف عندما يكون المرء في الخامسة عشرة، أو لعله مما يمكن أن ينشده المرء مع امرأة غير زوجته بعد ولادة طفله السابع). لكنّ تحوّلًا خاصًّا بدأ نحو سنة 1750 يحدث في هذا الميدان أيضًا. بدأنا نهتم بفكرة أخرى فيها طموح غير مألوف أبدًا: الزواج من أجل الحب. راح نوع جديد من الأمل يشغل أذهان الناس: ألا يمكن للمرء أن يكون متزوجًا وأن يكون لديه إعجاب وميل حقيقي نحو الزوجة، أو نحو الزوج؟ فبدلًا من وجود «مشروعين» متمايزين - الزواج والحب - ظهرت فكرة جديدة أكثر تعقيدًا. إنها الزواج عن هوى.

إن العالم الحديث مبني من حول رؤى متفائلة، مفادها أن أمورًا كانت تبدو في الماضي منفصلة لا يمكن الجمع بينها (المال والرضا الإبداعي؛ الحب والزواج)، قد صارت قابلة لأن تتحد وتأتلف معًا. هذه أفكار عظيمة ذات روح ديمقراطية، وهي مشبعة تفاعلاً في شأن ما نستطيع تحقيقه، فضلًا عن كونها لا

تقبل أبدًا بأشكال المعاناة القديمة (وهي محقّة في ذلك). لكن الطريقة التي حاولنا بها التصرّف وفق هذه الأفكار جعلتها تصير كوارث بدورها. إنها تخذلنا دائمًا. وهي تجعلنا في حالة من نفاق الصبر، وتولّد لدينا مشاعر الفصام والاضطهاد. إنها تخلق أسبابًا جديدة شديدة القوة لأن نكون محبطين. صرنا نحكم على حياتنا من خلال الطموحات التي تعلنها المعايير الجديدة، تلك المعايير التي تجعلنا نحس دائمًا أننا مقصرون عنها.

ثمة مشكلة إضافية هنا: صحيح أننا وضعنا لأنفسنا هذه الأهداف الكبيرة، لكننا صرنا ميّالين إلى أن نقول لأنفسنا إن الطريق المفضية إليها ليست بالضرورة طريقًا صعبة. صرنا نفترض أن المسألة ليست في حاجة إلا إلى أن نتبع إحساسنا وغريزتنا. سوف نعثر على العلاقة المناسبة (العلاقة التي تجمع بين العاطفة والاستقرار العملي من يوم إلى يوم) وعلى مهنة حسنة (مهنة تجمع الهدف العملي المتمثل في كسب دخل وبين إحساسنا بالإشباع والرضا الداخليين)، من خلال اتباع أحاسيسنا. نظل واثقين من أننا سنعيش - بكل بساطة - نوعًا خاصًا من الاندفاع العاطفي عندما نرى «الشخص المناسب»، أو أننا سننتهي من الدراسة فنحسّ انجذابًا أكيدًا إلى مهنة تناسبنا. إننا نولي ظاهرة «الإحساس الداخلي» قدرًا كبيرًا جدًّا من ثقنتنا.

ومن أعراض ولّهنّا بـ«إحساسنا» أننا لا نعترف حقًا بوجود حاجة كبيرة إلى التعليم والتدريب من أجل دخول علاقة، أو من أجل البحث عن عمل. نعتبر أمرًا طبيعيًا أن يكون الأطفال

في حاجة إلى عدة مئات من الساعات التعليمية المدروسة بكل عناية حتى يصيروا ماهرين في الرياضيات، أو حتى يتعلموا لغة أجنبية لأننا مدركون أن الإحساس الداخلي والحظ الحسن لا يمكن أبدًا أن يؤدّيا إلى نتائج حسنة في امتحان الكيمياء، وأن من التعسف الشديد أن نفترض غير هذا. لكننا نجد قدرًا كبيرًا من الغرابة في أن يشتمل المنهاج المدرسي على درس يكاد يكون يوميًا على امتداد سنوات كثيرة يعلم التلاميذ كيف يجعلون علاقة عاطفية تلقى نجاحًا، أو كيف يعثر المرء على عمل متفق مع اهتماماته وقدراته. قد نكون مقرّين بأن هذه القرارات ذات أهمية كبيرة جدًّا، وبأن لها نتائج مهمّة أيضًا، لكننا نفترض (نتيجة خلل غريب في تاريخ العقل البشري) أن هذه ليست من الأمور التي يمكن تعليمها. أمور مهمّة حقًا، لكن الظاهر أننا نظن الإجابة الصحيحة سوف تظهر في أذهاننا من تلقاء نفسها عندما تحين لحظتها.

هدف مدرسة الحياة هو تصحيح هذه الفرضيات التي تقسو علينا كثيرًا من غير أن تتعمّد ذلك، وأن تزوّدنا بأفكار نستطيع بها تحقيق ذلك الطموح الداعي إلى الإعجاب (لكنه شديد الصعوبة في حقيقة الأمر)، الطموح إلى التفكير الصحيح في حياتنا العاطفية والعملية.

بـ كم نحن وحيدون في بحثنا!

ثمة عوائق كثيرة تعترض سبيل العثور على عمل يحقق الإشباع والرضا. لقد بات قسم من هذه العقبات مفهومًا، ونشأت مؤسسات تعمل على المساعدة في تذليله.

1 - الافتقار إلى المهارات

أدرك البشر منذ زمن طويل أن أعمالاً كثيرة ترضيك تستلزم أن تكون لديك مجموعة بعينها من المهارات والمعارف التخصصية. قد تكون في حاجة إلى أن تستطيع التعامل مع مهابط الطائرات تعاملًا واثقًا، أو على خوض مفاوضات بلغة من لغات شرق آسيا مع مجموعة مهمة من العملاء الدوليين. وقد تكون في حاجة إلى معرفة تفصيلية بتشريح الأذن الداخلية أو بخصائص الإسمنت عندما يعمل على الشد. لذا، ومع مرور الزمن، نشأت مدارس وجامعات وكليات فنية كي تكون أماكن قادرة على التعامل مع العقبات التي يخلقها نقص المعارف المهنية. وقد صرنا ماهرين في مواجهة المشكلات الناشئة عن قلة المهارات.

2 - قلة المعلومات عن الفرص المتاحة

لم يكن سهلًا على الدوام أن يعرف المرء أين يمكن أن يبحث عن العمل الذي يناسبه. فعلى امتداد شطر كبير من التاريخ، لم تكن لدى الناس طريقة سهلة لمعرفة أين يبحثون عن فرص العمل. فعلى سبيل المثال، يمكن أن تكون «حارس طرائد» ممتازًا لو وظيفة في عزبة واقعة في ناحية بعيدة بعض الشيء، لكنك لن تنال تلك الوظيفة أبدًا لسبب تافه (لكنك لا تستطيع تجاوزه)، هو أنك لم تسمع بالأمر ولم تعرف أن هذه الوظيفة معروضة هناك. وقد تكون صاحب مؤهلات ممتازة وشخصية مناسبة لإدارة مصنع جديد للقطن، لكنك إن لم تكن تعرف صديقًا يعرف صديقًا آخر فسوف تظل حتى النهاية تعمل بوابًا. هذه المشكلة القاتلة صارت الآن محدّدة تحديدًا

جيدًا، وصار لها علاجها. لقد ابتكرنا كثرة كبيرة من وكالات التشغيل والتوظيف ومن شركات البحث عن المواهب، فضلًا عن مواقع الإنترنت التي تتولى مهمة التشبيك بين الناس. هذا كله يضمن لنا أن نصير قادرين تمامًا على ضمان أن تكون لدينا أفكار صائبة في شأن الأماكن التي قد يوجد فيها طلب على هذا النوع من العمل أو ذلك.

3 - عدم وجود هدف متسق

ثمة عقبة كبرى في وجه العثور على عمل مناسب لا تزال قائمة أمامنا. وهي عقبة لم تحظَ بما حظيت به العقبان السابقتان من اهتمام مع أنها أكثر منهما أهمية: التحدي المؤلم المتمثل في معرفة نوع العمل الذي يناسب الشخص بحيث يستطيع أن يحب القيام به. فعدم معرفة المرء ما يبحث عنه هو الأكثر أهمية من بين العقبان الثلاث. من غير تلك المعرفة، لا تستطيع المهارات، ولا يستطيع التعليم، ولا تستطيع الفرص المتاحة في السوق تحقيق الآمال الموعودة.

من المفاجئ أن ما ابتكرناه من أجل معالجة هذه المشكلة قليل جدًا. نحن نوليها بعض الاهتمام، بطبيعة الحال. تنصح المدارس والجامعات طلبتها بالجلوس مع استشاري والتأمل في المسألة ساعة أو ساعتين؛ ومن الممكن أيضًا أن نجتاز بعض أنواع الاختبارات التشخيصية المراد منها توجيهنا إلى خيارات مهنية قد تكون ملائمة لطباعنا الشخصية. يقوم كثير من هذه الاختبارات على «استبيان مايرز - بريغز» الذي وُضع في الأصل خلال النصف الأول من القرن العشرين.

من الممكن أن يضم الواحد من هذه الاختبارات مئات الأسئلة ومع كل منها خيارات متعددة للإجابة. يطالب كثير من تلك الأسئلة المرء بأن يصنّف أعمالاً من قبيل «العمل في الهواء الطلق»، أو «مساعدة الآخرين في بيئة البيع بالمفرق»، وذلك بحيث يبيّن تفضيله لكل منها مستخدماً عبارات متدرّجة من «غير مهتم» حتى «مهتم بشدة». إن ما تستهدفه هذه الاختبارات أمرٌ حسن جداً، فهي تسعى إلى تحديد أنماط شخصياتنا التي تتوزع -عادة- إلى 16 خياراً، من «ISTJ» (أي شخص منطو لديه نقاط قوة في الفهم والتفكير الحكيم على الأمور)، إلى «ENFP» (أي شخص منفتح لديه حدس قوي وإحساس وفهم جيدان). ثم تقترح علينا أنواعاً من العمل يمكن أن تكون لخصائصنا قيمة كبيرة فيها.

لكن لهذه التمارين التشخيصية، كما نعرفها في أيامنا هذه، بعض النقائص المهمة إلى أقصى حد. من الممكن أن يحسّها المرء طويلة جداً، وأن يمضي فيها وقتاً يبلغ ساعة كاملة. في واقع الأمر، قد يكون هذا الوقت أقل كثيراً مما ينبغي نظراً إلى أهمية السؤال المطروح: كيف أختار مهنة جيدة؟ فضلاً عن هذا، فهي ميّالة إلى أن تكون غامضة، أو غير محدّدة، من حيث الإرشادات التي توفرها لنا. قد تُبّنها إلى حقيقة أن لدينا ميلاً قوياً إلى الإبداع. لكن، لدينا قدرٌ من الضعف من حيث المؤشرات المنطقية؛ أو قد تقول لنا إن من الممكن أن يكون أداؤنا جيداً جداً في قيادة فريق، أو في وظيفة تتطلب التواصل مع الزبائن، لكنّها لا تحدّد تفاصيل ما يميّز به الفرد من قدرات.

وقد توجّهنا إلى مجموعة من الأسئلة الخاصّة بالمهنة تحتمل إجابات متنوّعة إلى حدّ غريب: قد تشير إجاباتنا عن تلك الأسئلة إلى أننا قد نكون مناسبين للعمل مع الحيوانات، أو في مهنة تستلزم استخدام الأرقام.

إن في وسعنا أن نكوّن فكرة عن عدم كفاية الأساليب الحالية من خلال التفكير في بعض الأشخاص ممن كانت لهم سير مهنية مرضية جدًّا على مر التاريخ فنحاول تخيل ما يمكن أن ننصحهم به الاختبارات الحالية. فلنفترض أن موزارت قد أجرى واحدًا من اختبارات «ماينرز - بريغز». عندما يقدّم إجاباته فقد يتلقّى نصيحة من قبيل: «ينبغي أن تشتمل المهنة الأمثل بالنسبة إليك على عمل مع الأفكار، أو مع التصميمات، يستلزم خيالًا واسعًا. وهذا يشتمل على أعمال في الفنون والأداء والكتابة الإبداعية والتصميم البصري والتفكير الإبداعي وتطوير الأعمال واقتباس الأفكار أو استنباط أفكار جديدة، فضلًا عن العمل في مجالات لا وجود فيها لقواعد عمل محدّدة. ومن أمثلة تلك الوظائف: التصميم الجرافيكي، والاستشارات التدريبيّة، وتنظيم حفلات الزفاف، والعلاقات العامة». لكن هذا كلّه بعيد أشد البعد عن مقطوعة «دون جيوفاني» أو عن «كونشيرتو الكلارينيت على مقام آماجور»! تبيّن هذه اللامعقولية كم يمكن أن تكون اختبارات كثيرةٌ بعيدة كل البعد عن القدرة على توجيه الفرد بأي قدر من الجدية أو التركيز. فكلما كان المسار المهني أكثر إشباعًا وإرضاءً كلما بدا نمط الاختبارات الحالي غير متنسق ولا فعال.

كان ينبغي أن تكون النصيحة المهنية المفيدة حقًا بالنسبة إلى موزارت نصيحة أكثر دقة وتحديدًا: بعد اجتيازه اختبارًا مثاليًا لسبر الأجزاء المهمة حقًا في شخصيته، وما لديه من نقاط قوة ونقاط ضعف، يمكن أن تكون النصيحة المقدمة إليه على النحو التالي، «خذ التركيبات الموسيقية المعقدة في مقطوعات الكانتاتا من عصر الباروك المتأخر، ثم بسّطها ووسّع مداها الانفعالي، وحاول أن تتعاون مع كاتب كلمات أوبرا لديه حسّ دعابة وعقل فلسفي. تشير نتائجك في الاختبار إلى أنك مناسب، خاصة لعمل فيه دمج بين عناصر الفكاهة والسخرية وبين المشاهد الجليلة المهيبة. ركز على قلقك من الموت كي تكتب تراويل القداس. الهدف العام: إعادة توجيه مجرى الثقافة الموسيقية الغربية».

إن ظهور هذه النواقص وهذه المحدودية غير مقتصر على حالات نادرة، أي على حالات الأشخاص العباقر. فلن تكون في الأمر مشكلة كبيرة إن لم يستطع اختبار قدرات العمل أن يفي 0,1 بالمئة من الناس حقهم. لكن ثمة فكرة أكثر إثارة للقلق - مع أنها أكثر دقة - ألا وهي أن كمية كبيرة من المواهب البشرية ذات السوية الرفيعة جدًا تظل من غير تطوّر كافٍ نتيجة الافتقار إلى النصح والإرشاد الجيدين في لحظات حاسمة. إن عدم تلقي المشورة ذات الاتجاه الصحيح حقًا مشكلة تصيبنا جميعًا... حتى إذا كنا قادرين على إدراك تلك المشكلة في حالات خاصة جدًا، كحالة موزارت مثلاً. تسكن عددًا كبيرًا من الناس (على نحو غامض، لكنه محق) فكرة أنه من الممكن، من حيث المبدأ،

أن يفعلوا أمورًا قد تغيّر العالم، لكنهم لا يستطيعون وضع اليد على طبيعة تلك الأمور، أو على كيفية فعلها. نحن في حاجة ماسة جدًا إلى موارد إرشادية أكثر غنى.

لقد تأمل الشاعر الإنكليزي توماس غراي (1716 - 1771) في موضوع يثير الكتابة، ألا وهو موضوع المواهب غير المستفاد منها، وذلك عندما وقف ينظر إلى شواهد قبور عمال زراعيين في بلدة ريفية صغيرة. تساءل غراي من قد يكون أولئك الناس وماذا كان يمكن أن يصيروا في ظل شروط أفضل مما كان لهم:

قد يكون راقداً في هذه البقعة المهجورة

قلب كان يحمل نارًا سماوية؛

أو يدان كان ممكناً أن تحملاً الصولجان الإمبراطوري،

أو قادرتان على إيقاظ قيثاره النشوة.

...

ما أكثر الزهور التي تولد فتزهر من غير أن تُرى،

وتضيع حلاوتها في ريح الصحراء.

قد يكون راقداً هنا ملتون صامتٌ لم يسمع به أحد.

توماس غراي

«مرثاة كُتبت في فناء كنيسة ريفية» (1751).

مقلقة حقًا هذه الفكرة التي يعبر عنها غراي تعبيرًا أنيقًا. وبمعنى من المعاني، فهي داعية إلى الغضب أيضًا: في وجود الفرص المناسبة والإرشاد السليم، يصير من ندعوهم «أشخاصًا عاديين» قادرين على تقديم مساهمات كبرى في الوجود.

فاليوم، لم تعد العقبات متمثلة في نقص المهارة والتعليم ولا في عدم القدرة على تحديد مكان من الفرص المحتملة. إنها ناشئة عن الفشل في التوصل إلى تحليل صحيح لقدراتنا والفشل في إرشادنا إلى سبل تطويرها. هذه هي الفكرة الباعثة على الحيرة التي لا تفعل الاختبارات المهنية المتوفرة حاليًا أكثر من الإشارة إليها من بعيد.

ثمة مشكلة خاصة متصلة بالاختبارات الحالية مفادها أنها ملتزمة التزامًا صارمًا بأنواع العمل الموجودة بالفعل. ليس هذا بالأمر المفاجئ لأن تلك الاختبارات نشأت في زمن كان يتسم بسوق عمل فيها استقرار نسبي وبخيارات مهنية محدّدة ومعرفّة تعريفًا واضحًا، بشكل عام. لكن من الممكن تمامًا أن يكون نوع العمل الذي يصلح له واحد من الناس (والذي يصير فيه ممكنًا له أن يستمتع بما يفعله) غير موجود في السوق. قد تكون لدى المرء قدرات كبيرة من أجل نوع من العمل لمّا يُخترع بعد.

لو أن جيمس و. ماكنزي الذي كان في السادسة الثلاثين من العمر في سنة 1925 خضع لاختبار مايرز-بريغرز الذي كان في ذلك الوقت ابتكارًا حديثًا لبيّن الاختبار أن لديه قدرات ذهنية كبيرة وقدرة عالية على حلّ المشكلات. كان من الممكن أن تتركز الاقتراحات المقدمة إليه بموجب ذلك الاختبار على الميدان الأكاديمي (في حقيقة الأمر، كان ماكنزي قد عُيّن أستاذًا جامعيًا قبل وقت قصير من ذلك)، أو على العمل في الصناعة. وأما ما لم يكن الاختبار ليفعله فهو توجيهه إلى الأمر الذي

سيُتضح بعد فترة وجيزة أنه جيّد جدًّا فيه: الدمج بين الاثنين. لم يكن الاختبار ليقترح عليه أن يفتش على نوع جديد من العمل لا يزال من غير اسم. إذًا، كان عليه أن يمضي في بحثه وحيدًا. على أن الأمور اتخذت مجرى حسنًا بالنسبة إلى ماكنزي لأنه أسس في السنة التي أعقبت ذلك مؤسسة «ماكنزي وشركاه» فأطلق فكرة «الخدمات الاستشارية الإدارية» التي تستطيع، في أحسن أحوالها، أن تجمع بين البحث والأساليب العملية في اتخاذ القرارات. يُبعدنا اختبار مايرز-بريغرز والاختبارات التي تشبهه (من غير قصد، بطبيعة الحال) عما يمكن حقًا أن يكون أفضل ما يمكن أن ننشده من توجّهات مهنية تثير اهتمامنا، وذلك لأن ما تقترحه من مهن مثالية يظل مستمدًا من الفئات الموجودة فحسب.

ليس علينا أن نلوم أنفسنا لأننا واقعون في هذه الحيرة. لقد وضعت ثقافتنا أماننا مشكلة «شيطانية»: تعدنا بأن الأعمال التي تشبعنا وترضيها موجودة، لكنها تتركنا غير مستعدين أبدًا لمعرفة كيف نكتشف قدراتنا وميولنا. غاية هذا الكتاب هي المساعدة في تصحيح هذه المشكلة العويصة التي «تقضم» حياتنا في صمت وتعترض سبيل آمالنا وتطلّعاتنا المشروعة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

عقبات في وجه امتلاك أهداف

أ- «أسطورة نداء المهنة الداخلي»

لعلّ مشكلة تحديد الهدف المهني مشكلة جدية واسعة الانتشار، لكنها لا تزال تفتقر إلى أن نكرس لها ما تستحقه من تفكير متأنّ شامل. في حقيقة الأمر، نحن ميّالون إلى اعتبار تشوّشنا وحيرتنا في شأن مساراتنا المهنية فشلاً محرّجاً بعض الشيء له انعكاس سلبي على من يعانیه. ما أسهل أن نعتبر ذلك التشوش علامة على أن صاحبه شخص مرتبك غير عملي، وعلى أنه شديد الانتقائية إلى حدّ غير منطقي، أو على أنه واحد ممن يصعب إرضاءهم. وقد نعتبر هذا ناتجاً عن أنه شخص أفسده الدلال («عليك أن تكون ممتناً لأي عمل تحصل عليه»)، أو قد نعتبره عرضاً مقلّماً من أعراض الخفّة أو ضعف الالتزام. نتوصّل إلى هذه الاستنتاجات القاسية لأننا لا نزال تحت تأثير فكرة «كبيرة»، سامة أكثر الأحيان، نستطيع أن نسميها «أسطورة نداء المهنة الداخلي».

نشأت هذه الأسطورة من حول عدد من التجارب ذات الطبيعة الدينية التي اعتبرت -على الرغم من ندرتها- شديدة الأهمية أو كبيرة المغزى، فحظيت بقدر كبير جدّاً من الشهرة

في تاريخ الغرب. إنها تلك اللحظات التي يخاطب فيها الرب فردًا من الأفراد (يخاطبه أحيانًا من خلال واحد من الملائكة، وفي أحيان أخرى يخاطبه مباشرة عبر الغيوم)، فيوجهه إلى تكريس حياته لهذا الجانب أو ذاك من جوانب الدعوة المقدسة. من بين تلك القصص قصة الفيلسوف القديس أوغسطين (354 - 430 م.) الذي غير مهنته في أواسط عمره بفعل تلقيه «أوامر سماوية». لقد تحوّل من أستاذ آداب وثني إلى أسقف كاثوليكي. كان هذا تغييرًا للمهنة كبيرًا جدًا. لكن أوغسطين لم يكن مضطرًا إلى أن يأتي بهذا التغيير من عنده. ففي سنة 386، كان مقيمًا في مدينة ميلانو الإيطالية حيث خرج ذات يوم في نزهة هناك. سمع طفلًا يغني أغنية حلوة لم يسمعها قبل ذلك أبدًا. وكانت في تلك الأغنية لازمة متكررة تقول: «التقطه، التقطه»، ففسّر ذلك بأنه أمر من الرب. التقط إنجيلًا وقرأ أول فقره وقعت عليها عيناه فجعلته تلك الفقرة يغير حياته كلها ويصير الشخص الذي نعرفه اليوم بأنه رجل دين كاثوليكي عظيم.

صحيح أن هذه القصة قد تبدو مرتبطة بتاريخ الكاثوليكية، لكننا قمنا «بعلمنتها» مع غيرها من قصص تشبهها من غير أن ننتبه إلى ذلك. فنحن أيضًا نسير في حياتنا وكأننا نتوقع أن نسمع، في لحظة من اللحظات نداءً «شبه سماوي» يوجهنا صوب غاية حياتنا.

وكما يحدث في حالات كثيرة، بدأ الأمر بالفنانين. فحتى

عصر النهضة، لم يكن الفن إلا مهنة يمارسها بعض الناس. وفي معظم الأحيان، يصير المرء فنّانًا لأن أباه أو عمّه كان كذلك. لم يكن الناس يعتبرون رسم اللوحات أو صنع التماثيل أمورًا مختلفة اختلافًا جذريًا عن صنع الأحذية أو سروج الخيل: كلّها حرفٌ مفيدة تستلزم مهارة يستطيع أي شخص مجتهد اكتسابها مع الزمن بعد أن يتلقّى تدريبًا مناسبًا. لكن الفنانين راحوا يعتبرون أنفسهم (وهذه استعارة من القصص الدينية) أشخاصًا ناداهم القدر ودعاهم إلى اتجاه بعينه في العمل. ثمّة «أمرٌ» في داخلهم يشدّهم إلى فنهم. كان مايكل أنجلو (1475 - 1565) من أبرز الأمثلة على هذا التفكير فقد اعتقد أن روحه تطالبه برسم سقوف الفريسكو ونحت كتل الرخام. لعلّه كان يتمنّى أحيانًا أن يتوقف عن ذلك، لكن من شأن توقّفه أن يعني خيانة ذلك النداء الداخلي.

تظهر فكرة «النداء» في سير عدد كبير من أوسع الأشخاص شهرة في العالم. فعلى سبيل المثال، نعلم أن عالمة البولونية الرائدة ماري كوري (1867 - 1934) عرفت منذ أن كانت سنّها خمسة عشر عامًا أن حياتها كلّها تعتمد على تمكّنها من القيام بأبحاث علمية. لقد كانت شديدة التصميم في مقاومتها كل ما اعترض دربها من صعوبات - كانت من غير مال؛ وخلال فترة دراستها في الجامعة، كادت تتجمّد وتموت بردًا ذات شتاء، وفقدت وعيها مرات كثيرة لشدة جوعها. لكنها نجحت آخر الأمر ونالت جائزة نوبل مرتين: المرة الأولى في سنة 1903

لقاء عملها على الأشعة السينية؛ والثانية في سنة 1911 بعد أن اكتشفت العنصرين المشعّين: الراديوم والبولونيوم.

نتيجة هذه الحالات، صار وجود ذلك النداء الداخلي لدى المرء كأنه علامة أكيدة على أنه مُقدّر له أن يجترح أمورًا عظيمة. وبالضرورة، صار عدم وجود نداء لدى المرء علامة من علامات الحظ العاثر، بل دليلٌ على أنه قد يكون أقل من غيره شأنًا. و صار الأمر ينتهي بنا لا إلى الخوف فحسب من أننا ليست لدينا «درب» في أذهاننا، بل أيضًا أن يصير تشبيطًا لنا لأنه يكاد يكون دليلًا على أن أية درب تسير فيها حياتنا من غير نداء داخلي يدعوننا إليها ستكون بالضرورة دربًا من غير مغزى.

أسوأ من ذلك أن «عثور المرء على ندائه» صار يبدو كأنه اكتشاف علينا أن نتوصل إليه خلال فترة وجيزة من الزمن. ثم إن طريقة اكتشاف ذلك النداء ينبغي أن تكون سلبية بالكامل (السبب في هذا عائد إلى السوابق الدينية والفنية): بكل بساطة، على المرء أن ينتظر لحظة الإلهام التي صارت معادلًا لقصف رعد في السماء أو لصوت قدسي. صار عليه أن ينتظر دافعًا داخليًا يستحثّه إلى امتهان طب القدمين أو إدارة سلاسل التوريد.

من الممكن أن نلاحظ صدّي صغيرًا لهذا الموقف، وإن يكن صدّي مهمًا، في عادة سؤال أطفال لا يزالون صغارًا جدًا عما يريدون أن يكونوا عندما يكبرون. فثمة افتراض خفيض الصوت، لكنه ذو دلالة، مفاده أنه توجد، في مكان

ما بين الخيارات التي يطرحها الطفل (لاعب كرة قدم، مارك زوكربرج، رائد فضاء، إلخ)، تعبيرات أولى عن ذلك الصوت الداخلي بالغ الأهمية الذي يخبر الطفل الصغير بما هو مقدر له. والظاهر أننا لا نجد غرابة مفاجئة في توقع أن «يفهم» طفل لم تتجاوز سنه خمس سنين وستة أشهر هويته في سوق العمل في عالم البالغين.

يساعدنا هذا كله في تفسير الصمت الاجتماعي النسبي في ما يخص مهمة اكتشاف الإجابة عن سؤال: ماذا نعمل؟ غالبًا ما يكتفي الأصدقاء وأفراد العائلة من ذوي النيات الحسنة بنصح الشخص الحائر بأن ينتظر: ذات يوم، سوف يظهر لك ما تحسّنه صحيحًا!

بطبيعة الحال، وعلى النقيض مما يوحي به هذا الفهم الرديء الجائر لـ«النداء الداخلي»، فإنه لأمر منطقي تمامًا، بل صحي أيضًا، ألا يعرف المرء ما هي مواهبه وكيف يضعها موضع الاستخدام. وذلك أن طبيعة الإنسان بالغة التعقيد، وقدراته مخاتلةٌ يصعب تحديد تفاصيلها، وحاجات العالم مراوغةٌ كثيرًا إلى حد يجعل اكتشاف التوافق الأنسب بين الشخص والعمل تحديدًا عظيمًا من المشروع تمامًا أن يستلزم قدرًا كبيرًا من التفكير والبحث والاستكشاف والمعونة الحكيمة، بل قد يقتضي أن نفكر فيه سنين طويلة. ومن المنطقي كليًا ألا يستطيع المرء معرفة العمل الذي «ينبغي» أن يزاوله. ثم إن إدراك المرء أنه لا يعرف بدلًا من معاناته زمنًا طويلًا ذلك الضغط الناجم

عن الافتراض المؤذي القائل إنه «ينبغي أن يعرف» ليس إلا علامة حقيقية على النضج.

بـ غموض عقولنا

حتى إن قبلنا أن اكتشفنا ما نريد فعله مهمة تستلزم أحياناً أن نكرس لها قدرًا كبيرًا من التفكير على امتداد سنوات كثيرة، فسوف نواجه مشكلة أخرى تثير في نفوسنا قدرًا أكبر من الحيرة: ما مدى صعوبة أن نعرف طبيعة عقولنا؟ فثمة مشكلة قاتلة هي أن عقولنا ضعيفة الاستعداد لتفسير أنفسنا وفهمها. فنحن لا نستطيع أن نجلس ونستجوب أنفسنا استجوابًا مباشرًا عما نريد فعله في حياة العمل مثلما قد نسأل أنفسنا عما نفضل تناوله من طعام. فالذات تنزوي في هذه الحالة وتلوذ بالصمت، بل تتشظى تحت وطأة هذا الفحص. في أحسن الأحوال، تفصح عقولنا العميقة عن إشارات متقطعة على أمور بعينها قد تستهويننا أو تخيفنا. قد نجد أنفسنا نقول: «أحب أن أفعل شيئًا إبداعيًا»، أو «لا أريد أن أتخلى عن حياتي لصالح واحدة من الشركات»، أو «أريد أن يكون لي أثر»، أو «أريد عملاً ذا معنى». لعل هذه التطلعات معقولة، لكنها أيضًا طائشة من حيث افتقارها إلى أي قدر من التحديد. ومن الطبيعي أن يكون التفكير في بناء مسار مهني على أساسها أمرًا باعثًا على الذعر، وذلك أن عدم وجود خطة متينة في أذهاننا لن يلبث أن يضع حياتنا تحت رحمة خطط الآخرين.

نحن نزاعون إلى لوم أنفسنا ولوم عقولنا التي تبدو لنا

معدومة الذكاء إلى حد استثنائي. لكن ضعفنا هذا ليس بالأمر الفريد. فكل ما في الأمر هو أننا نواجه - في لحظة شديدة الضغط والتوتر - مشكلة جوهرية من مشكلات ذلك العضو المسؤول عن التفكير البشري. لا يسهل كثيرًا على عقولنا أن تقدم إجابات عن أسئلة مباشرة. وسوف تكشف تلك الإجابات المعيبة عن نفسها إذا طالبنا واحدٌ من الناس بأن نقول له معنى الحب الحقيقي، أو ممّ تتكوّن الصداقة. قد تنتابنا الحيرة فنعجز عن الإجابة. ومن الممكن جدًا ألا نستطيع الإتيان بأي تحليل معقول، ولو قليلًا، على الرغم من وجود حقيقة جوهرية بالغة الوضوح: نحن نفكر كثيرًا في ما يقوم عليه الحب أو في ما تقوم عليه الصداقة لأننا مررنا جميعًا بكثرة من تجلياتهما.

لدينا بالفعل كمية كبيرة جدًا من المادة المفيدة الصالحة من أجل تكوين نظرة شاملة وآراء عميقة. لقد مرت بأذهاننا أفكار وأحاسيس كثيرة، وعرفنا حالات حسنة وحالات سيئة من الممكن أن تساهم في إسعافنا بإجابات عميقة. ولكن، ما أسهل أن تصير تجاربنا وخبراتنا عاجزة عن إنتاج إجابات متينة. المشكلة هي أن أفكارنا غالبًا ما تظل مبعثرة في عقولنا. فنحن لا نستطيع جمعها وتدقيقها ورؤية ما بينها من ترابطات، ولا نستطيع إدراك تطورها. لا نجد وقتًا كافيًا، أو لا نجد ما يشجعنا على التفكير في ما تقوله لنا كل واحدة منها، وكيف السبيل إلى الجمع بينها كلها. مع هذا، وإذا أحسنا أننا أشد ثقة بأنفسنا وأكثر براعة من الناحية العقلية، فسوف تكون لدينا

جميعاً قدرة على الخروج بآراء ذات قيمة كبيرة جداً (فالناس الذين ندعوهم كتاباً عظماء، هم في نهاية الأمر، ليسوا إلا أشخاصاً يعرفون كيف يستخدمون «شبكة صيد الفراشات» اللازمة لالتقاط أفكارهم العابرة المترددة الوجلة).

ثمة أمور كثيرة نعرفها من غير أن ندرك أننا نعرفها. وهذا لأننا لم نتمرن على فن جمع تجاربنا وتفسيرها. فكيف يكون شكل المدينة الجميلة؟ وكيف تكون العطللة المثالية؟ وكيف يجري حديثٌ حسنٌ؟ قد تبدو هذه الأسئلة مرهقة، لكن لدينا إجابات عنها لأن عندنا جميعاً - في مكان ما ضمن ذكرياتنا - ذكريات عن الرفاه وحُسن الأحوال عندما سرنا في شوارع عاصمة من العواصم، ولأننا شعرنا جميعاً بأن حواسنا قد انتعشت عندما كنا في بيئة جديدة، ولأننا أحسنا انتعاشاً كبيراً عندما جلسنا مع أصدقاء. ليس اعتقادنا بأننا لا نعرف الإجابات إلا عرضاً من أعراض ميلنا الدائم إلى التقليل من شأن قدراتنا. فبقدر غريب من التكرار، نصرف النظر عن حقيقة أننا نحمل داخل ذواتنا قدرة على تناول أكبر المسائل التي يطرحها الوجود.

بدلاً من ذلك، وبحكم الخوف والعادة، نشيح بوجوهنا عن مهمة الاستكشاف الداخلي ونستعين بعبارات مبتذلة نعرف أنها لن تفي انطباعاتنا حقها، ونحس بأن مشاعرنا الحقيقية مختبئة في مكان ما وأنها لا تزال في شكل مشوش لا يستطيع أن يجد كلمات تعبر عنه، لكننا نأمل أن يتركنا وشأننا ذلك الذي يطرح علينا تلك الأسئلة وأن ينصرف إلى تعذيب غيرنا.

إذًا، ما من شيء شديد الخصوصية (وما من شيء مقلق حقًا) في عدم قدرتنا على تقديم إجابة مباشرة، أو واضحة عن أسئلة متصلة بما قد نكون راغبين في فعله في حياة العمل. فهذا ليس أكثر من مثال آخر على ما في عقولنا من ضعف ظالم وعلى ما في نفوسنا من قلة ثقة. مكتبة سُر من قرأ

ولما كانت عقولنا لا يسهل عليها التوصل إلى خطط من أجل أعمالنا مع أن المادة اللازمة من أجل تلك الخطط غالبًا ما تكون موجودة فيها، فإن علينا أن نتمهّل كي نجمع المعلومات اللازمة جمعًا واعيًا، فنصنع منها «مكتبة» وندقق فيها ونحللها بحيث نضمن أن نستطيع أفكارنا الشاردة وانطباعاتنا الحسية العابرة، ذات يوم، أن تتجمع ضمن أفكار واضحة. قد تواجه ذلك بضع صعوبات وتعقيدات (سوف نتناولها بعد قليل)، لكن العقبة الكبرى في وجه بدء تلك العملية هي ذلك الإحساس الباعث على الكتابة بأن الإقدام على فعل هذا قد يكون أمرًا غير طبيعي وغير ضروري. إن على السعي إلى فهم «شخصية العمل» لدينا أن يبدأ بإقرار أساسي بما في عقولنا من غموض طبيعي ووجل ذهني... وذلك من غير وقوعنا فريسة الإحساس بأن رغائبنا العقلية العابرة مخجلة، أو بأنها دليل على نوع من الضعف.

عند تناول السؤال عما قد نفعله في شأن العمل، ينبغي أن تكون لدينا ثقة كافية للإيمان بأن أقسامًا كبيرة من إجاباتنا السليمة موجودة بالفعل في دخيلة أنفسنا. لكن الطريقة الأفضل

للتعامل مع الأمر هي ألا نستعجل الوصول إلى نتائج لأن المعلومات الأولية القادرة على المساهمة في تكوين الإجابة لا تكون -عادة- مدروسة أو معالجة معالجة صحيحة داخل أذهاننا، فهي لا تدرك طبيعتها ولا قدرتها على إرشادنا، فضلاً عن أنه لا بد لنا من تخليصها مما أصابها من أخطاء ومن نسيان. علينا أن نثق صابرين بأننا قد جمعنا بالفعل كمية كبيرة من المعلومات والتجارب والخبرات ذات الصلة بنوع العمل الذي يجب أن نسعى إليه، لكن ذلك كله أتاناً «متنكراً»، فبتنا غير قادرين على التعرف عليه أو فهمه من غير عناء. لكن، طالما أن ذلك كله موجود لدينا، فمن الممكن أن يكون كافيًا فك رموز تلك المعلومات باستخدام هذه المؤشرات الدالة على القدرات المتصلة بالمسار المهني: مشاعر سرور واضحة، أو حماسة، أو نفور إزاء ما هو ذا صلة بكثير من المهام والتحديات الصغيرة. قد يبدو هذا بعيداً كل البعد عن أي شيء يشبه عملاً ذا أجر.

المفارقة في الأمر هي أن أفكارنا السابقة المباشرة عن العمل ليست -أكثر الأحيان- هي الأكثر منفعة في توجيهنا صوب عمل جديد أكثر إشباعاً وإرضاءً لنا. فالغاية من بحثنا هي العثور على عمل نستطيع أن نحبه، لا على عمل «نعرفه» لأننا زاولناه من قبل. وهكذا، نحن في حاجة إلى معرفة الكثير عما نحبه، وعن سبب هذا الحب، قبل أن نتعجل في الانتقال إلى صياغة خطة من أجل مسارنا المهني. قد نبدأ بالتركيز على ذلك «المستودع» من الأفكار العارضة التي كانت لدينا عن

العمل: إنه طفولتنا. متى أحسنا خلال تلك السنوات الطويلة نوعًا خاصًا من الحماسة؟ علينا أن نترك عقولنا تسترخي وتفصح لنا عن أصغر التفاصيل وأقلها أهمية. لعلنا كنا نحب الاستلقاء على أرض غرفة النوم في البيت القديم (لا بد أننا كنا آنذاك في الثانية من العمر) وقص قطع من الورق من دفتر ملوّن، ثم ترتيبها على شكل شرائط. في بعض الأحيان، كان لدينا حب خاص لرسم خطوط مستقيمة على ورقة بيضاء، ولا شيء أكثر من ذلك. ولعله كانت لدينا كنزة ذات جاذبية خاصة بالنسبة إلينا... كانت فيها دوائر صفراء على صدرها، أو لعلنا كنا مولعين حقًا بالجري من حول أجسام في حديقة الفندق الذي كنا ننزل فيه أحيانًا في طفولتنا. من الممكن أيضًا أننا كنا نُسرّ كثيرًا عندما تكون غرفتنا مرتبة نظيفة. وفي المدرسة، لعله كان مزعجًا جدًا لنا أن ننفذ مشروعًا مشتركًا مع زميل لنا ويكون ذلك الزميل شخصًا لا يقبل أفكارنا بخصوص شكل العرض الذي سنقدّمه، أو بخصوص حجمه، أو ترتيب صفحاته. أو لعلنا كنا نمقت أسلوب بعض الناس في العناية الشديدة بتسريح شعرهم، أو نحب الوقت الذي نمضيه في الثرثرة مع صديق عن جزيرة صحراوية نتخيلها.

في هذه الذكريات، نلتقط حوادث مهمة في تاريخ مشاعرنا الحميمة. نكتشف أحيانًا (قد لا ندرك الأمر إدراكًا واضحًا) أن ثمة أمورًا كانت تسرنا كثيرًا، أو تزعجنا. هذه التفت الصغيرة جدًا تشير إلى ميول رئيسية في طبيعتنا من الممكن جدًا أنها

لا تزال حية في نفوسنا، لكن تأثيرها غير ظاهر لنا. يعني هذا أن علينا أن نتقدّم بخطى بطيئة. وقد يستغرق الأمر شهورًا من التفكير المتأنّي قبل أن نكتشف ونحدد بعضًا من المكونات المركزية في طبيعتنا، تلك المكونات التي لن يلبث الأمر أن ينتهي بها إلى القيام بدور مُوجّهات بالغة الأهمية ترشدنا إلى حياة العمل الجيدة بالنسبة إلينا.

ليس الماضي وحده ما يتعين علينا تحرّيه. علينا أيضًا أن نبدأ بجمع أحاسيسنا في الزمن الحاضر وتحليلها. وذلك أن العقل شديد الميل إلى مسح ما سجّله مؤخرًا كل بضع ساعات. علينا أن نحفظ بدفتر نسجل فيه مشاعرنا ثم نعود إليها في وقت لاحق ونحاول إقامة صلوات بينها وبين تجارب أخرى سجّلناها قبلها. وعلينا أن نستمر في فعل هذا بصبر يشبه صبر عالم الطيور عندما يستلقي بين النباتات منتظرًا أن تسنح له رؤية نوع نادر من الطيور المهاجرة.

من المحتمل أن الأشخاص الذي هم أكثر مهارة في استنباط طرق متقنة لجمع المعلومات كانوا كتابًا. فقد كان أولئك الناس -كلهم تقريبًا- يحملون دفتر ملاحظات، لا لأن لديهم مشاعر كثيرة جدًّا (هذه حال الناس عامة)، بل لأنهم يدركون كم يمكن أن تكون الأفكار العابرة التي تبدو قليلة الأهمية ذات قيمة كبيرة في حقيقة الأمر... فكم هم مدركون تلك التكلفة الباهظة لما تتسم به عقولنا من ميل إلى النسيان!

كان الكاتب الفرنسي العظيم أونوريه دو بلزاك (1799-

(1850) واحدًا من أكثر الناس حرصًا على تدوين ملاحظاته. كانت شخصية الإنسان تسحره، وعلى نحو خاص، تسحره أساليب الناس في الحركة والتعبير، وكيف تفصح تلك الأساليب عن بعض النواحي الجوهرية في شخصياتهم. انطلاقًا من هذه الفكرة، صار بلزاك راصدًا دائمًا لأحوال الناس الذين يراهم في شوارع باريس أو الذين يلتقيهم على العشاء أو في أماكن العمل. يقول لنا دفتر ملاحظته:

«حركاتها غير موزعة توزيعًا متساويًا على شخصها كله؛ إنها تتقدم كتلة واحدة مع كل خطوة تخطوها كأنها تمثال». «يسير كما يسير طاغية: إن في أدنى حركة من حركاته إحياءً متوعدًا ناطقًا بالأمان والقوة». «حركة فظة تشي برذيلة من الرذائل». «أسلوب حركة هذه المرأة هنا وهناك... تستطيع السير مختالة طيلة الوقت من غير أن تفصح عن شيء».

لكن بلزاك لم يتوقف هنا، فهذه اللحظات من الوجود لم تكن قادرة على أداء دورها إلا بعد أن يهتدي إلى المواضيع التي يستطيع فيها أن يجعلها مفيدة. كان معنى هذا، في حالة بلزاك، العثور على أماكن لها في قصصه. ومع أن هذا المسعى قد يبدو شديد الخصوصية، لكن الرجل كان يبذل ذلك الجهد في مهمة هي، في حقيقة الأمر، مهمة كل إنسان. فعلينا نحن أيضًا أن «نصطاد» ونحلل أحاسيسنا، وأن نجتمع من ألف إلماحةٍ مختلفة مادةً ليست من أجل عمل أدبي، بل من أجل ما هو أهم من ذلك كثيرًا: من أجل نسيج حياتنا، حياة عملنا في المستقبل.

تمرين

توحي فكرة عثور المرء على «ندائه الداخلي» بأننا يجب أن نكون قد صرنا عارفين العمل المناسب لنا. مع هذا، تظل نقطة البداية الأكثر صحة هي الإقرار بأننا لا نعرف ذلك أبدًا. إن التحديّ كامن في العودة إلى رغباتنا الأصلية. والغريب في الأمر أننا غالبًا ما نعثر عليها في زمن لم يكن أكثرنا يفكر فيه بالعمل: زمن الطفولة. فالطفولة مكان صالح للبدء لأننا كنا، وقتها، نهتم بأمور بعينها من غير وجود كثير من العناصر التي صارت، في وقت لاحق، تسكن اهتماماتنا وتشوّهها. فعندما كنا أطفالًا، لم تكن تشغل أذهاننا أمور من قبيل المال أو المنزلة الاجتماعية، أو حتى إن كنا ماهرين أو غير ماهرين في ما نفعله. بالتالي، سيكون أمرًا ذا قيمة كبيرة أن نتحرّى لحظات المتعة والسرور في طفولتنا.

الخطوة الأولى

- تذكر ثلاثة أمور كنت تستمتع بفعالها في طفولتك.
- صف الأماكن التي كنت تلعب فيها.
 - كيف كان إحساسك عندما تجلس في غرفتك في يوم ماطر، أو عندما تكون في الحديقة أو في فناء البيت.
 - ماذا كنت تفعل هناك؟

الخطوة الثانية

اكتب بضعة سطور تصف فيها كل حالة من الحالات الثلاث. على سبيل المثال: «كنت أنزل إلى الطابق السفلي وأبني بالمكعبات قلعة. أجلس وسط الغرفة وأرتّب المكعبات كلها قبل أن أبدأ».

أو: «كنت أظاهر بأنني أقود طائرة تجارية فأنقل الطعام من المطبخ إلى غرفتي وأضع الدمى أمامي كي أصدر إليها تعليماتي مثلما يفعل كابتن الطائرة».

الخطوة الثالثة

تخيّل أنك تشرح لشخص آخر ما جعلك تحب فعل هذه الأمور. أغمض عينيك وتذكر كيف كنت تفعلها. صف أفضل اللحظات.

ما كان ذا متعة خاصّة عندي:

- عندما أرى بيوتًا في صف واحد.

- عندما نكون قد وضعنا العلف للحيوانات.

- عندما سقطنا في البركة.

- عندما كنت أصدر تعليماتي إلى المسافرين.

انظر الآن إلى ما وراء هذه اللحظات بعينها كي تحدّد ما كان في كل واحدة منها من متعة.

كنت أستمتع بهذا لأن:

- بناء عالم صغير منظم أمرٌ مرضٍ للنفس.

- جميل أن تجعل الحيوانات سعيدة.

- أحس أمانًا عندما أكون مع أصدقائي.

- أحب الإحساس بأنني في موقع القيادة.

الخطوة الرابعة

بعد ذلك، كتّف إجاباتك بحيث تصير أوصافًا لميولك:

- أنا شخص يحب... عندما يسود النظام.

- أنا شخص يحب... جعل الآخرين سعداء.

- أنا شخص يحب... الاندماج ضمن فريق.

- أنا شخص يحب... أن أكون قائدًا.

عندما نكون أطفالاً، لا نحلل منابع سرورنا واستمتاعنا. لكن ما يحدث أكثر الأحيان هو أننا لا نحظى بذلك الإحساس المباشر الشديد بالسرور إلا عندما نكون أطفالاً. وعندما ندخل صحراء المراهقة، ينتقل المرح إلى المرتبة الثانية بعد البحث عن النجاح الاجتماعي فتسبقه فكرة السعي إلى «الالتحاق بالاقتصاد». ثم نبلغ سن الرشد وقد صارت في رؤوسنا فكرة عما قد يسرنا حقاً لكنها - في واقع الأمر - فكرة بعيدة كل البعد عن قائمة الأولويات الخاصة بنا.

هذه العملية المبيّنة أعلاه التي ينبغي أن نكرّرها من أجل ذكريات طفولة أخرى، تساعدنا في أن نصير أكثر وضوحاً وتحديدًا في شأن ما كان يسرنا ويمتّعنا عندما كنا أحرارًا في اللعب كما نشاء. نستطيع بهذه الطريقة تكوين صورة عما يأتينا بالسعادة، وبالتالي إدراك طبيعة العمل الذي يمكن أن يرضينا. فالعمل الذي يحقق الرضا والإشباع يحمل إلينا معه، لا محالة تقريباً وبطرق خفية غير مباشرة لكنها بالغة الأهمية، أصدقاء المسرّات التي عرفناها في طفولتنا.

لم نفعل حتى الآن شيئاً غير تجميع المشاعر. لكن ثمة خطوة تالية. علينا أن نوصل في ما بينها ونخرج منها بنتائج عامة مع تذكّر أن تطبيقات تلك النتائج تكاد تكون غير مباشرة. فمثلاً، لا ينبغي أن نفهم من سرورنا بقراءة المجلات عندما كنا صغاراً أنّ علينا البحث عن وظيفة في مجلة من المجلات. تستحق منابع رضانا وسرورنا أن نحظى بفحص أكثر دقة كي تكشف

كشفاً دقيقاً عن مجموعات الخيارات الحقيقية المتاحة لنا. فعندما نهتم بتلك منابع الاهتمام الواجب، نرى أن مشاعرنا إزاء قراءة المجلات تحتوي على إلماحات إلى اهتمامات بميادين عمل أوسع كثيرًا من «استهلاك المطبوعات». قد تكون الحقيقة أننا مشدودون إلى ما له علاقة بالمنتجات الورقية، أو إلى الصور التي في المجلة، أو إلى ما كنا نجده في صفحات التسلية، أو إلى مناخ الحيوية في رسائل المحرّر التي كانت تعِدُّنا بالتعويض عن ثغرات في معارفنا. من الممكن أن تكون هذه المسرّات قد ظهرت حين قرأنا مجلة، لكن ما من شيء يجعلها ذات ارتباط ضروري بالمجلات. فقد يمر تحليلنا الأولي مرورًا أسرع مما ينبغي بالمحتوى الحقيقي لرضانا ومسرّتنا فيقودنا إلى اتجاهات زائفة إلى حد خطير. صحيح أن المعلومات التي نسترشد بها لم تفصح عن نفسها إلا عبر أعداد هذه المجلة أو تلك، لكن مشاعرنا (بعد «تصفيتها» كما ينبغي) يمكن في واقع الأمر أن تدفعنا صوب أعمال لا علاقة لها أبدًا بالمجلات: قد يكون أكثر ملاءمة لنا أن نعمل في واحدة من شركات الورق والقرطاسية، أو العمل في المعالجة النفسية أو في استوديو للتصميم الصناعي.

هذا جزء مما يوجب علينا أن نحذر التفكير مع أنفسنا، أو مع الآخرين، في أعمال بعينها، وذلك لأن علينا التركيز على ما ينطوي عليه كل عمل من خصائص. لا ينبغي أن نستعجل التوصل إلى استنتاجات من قبيل «مصمم غرافيكى، أو

«مصوّر»، بل علينا أن نبقي أطول وقت ممكن مع المسرّات التي يشتمل عليها العمل معبّرًا عنها بكلمات من قبيل: النظام، القيادة، المعنى، الهدوء، روح الفريق.

عند هذه النقطة، يصير علينا أن نستعين بفكرة الحوار الداخلي. فمع تقدمنا في الأمر، يتعين على جانب من جانبيّ العقل أن يطرح الأسئلة على الجانب الآخر بطريقة لطيفة لكنها ملحة. على «الذات الملاحظة» أن تسأل «ذات المشاعر اليومية»: إذا، أنت تجدين هذا الأمر لطيفًا فما الذي سرّك حقًا في هذه التجربة؟ لم يكن كل شيء فيها سارًا، بل هو أمر أكثر تحديدًا. ألا تستطيعين أن تشرحي لي الأمر بقدر أكبر من التفصيل؟ من الممكن أن تجيبيها ذات المشاعر اليومية: «لست أدري، فأنا غير واثقة. لكن ذلك كان حلواً». لكن الذات الملاحظة تعود إلى السؤال: «حاولي مرة أخرى. لا مشكلة في أنك غير واثقة. سنجرب الأمر بطريقة مختلفة. تذكّري، في تلك المرة الأخرى... لقد كان فيها شيء مماثل، لكنه ليس الشيء نفسه تمامًا. ما رأيك أن نقارن بين المرّتين؟». شيئًا بعد شيء. ثمر الإشارات والإلماحات الأولى أجزاء من معلومات موجودة لدينا، معلومات عما يجعلنا مسرورين حقًا، أو عما يزعجنا. هذا ما يجعلنا نتقدّم قليلاً صوب فهم «من نستطيع أن نكون» إزاء العمل، وكيف ينبغي أن نكون في الحالة المثلى.

ليست الأحاسيس السارة وحدها ما يحمل إلينا إشارات في شأن المستقبل. فالحسد أيضًا يمكن أن يكون دليلًا بالغ

الأهمية، وإن يكن هذا أمرًا مفاجئًا. الخجل من النفس استجابة طبيعية للإحساس بالحسد. لكن شعورنا بالحرَج نتيجة ما نعيشه من لحظات حسد يأتي معه بخطر تشجيعنا على كبت ذلك الإحساس فنفقد فرصة استخلاص بعض الدروس المهمّة جدًّا منه. صحيح أن الحسد إحساس غير مريح، إلا أن محاولة فهم هذه العاطفة أمر ضروري لا غنى عنه من أجل تمكّنا من تقرير مسارنا المهني. وذلك أن الحسد دعوة إلى الفعل ينبغي أن نصغي إليها وأن نوليها اهتمامًا لأنها تحمل رسائل مشوّهة تبعث بها أجزاء مرتبكة، لكنها مهمة، في شأن ما ينبغي علينا فعله في ما بقي من حياتنا. إنها رسائل تنبئنا بأجزاء مرتبكة من شخصيتنا ينبغي أن تحظى بقسط من اهتمامنا. فمن غير نوبات الحسد المتكررة، لا نستطيع معرفة ما أردنا أن نكون. بدلًا من محاولة كبت حسدنا، علينا أن نبذل كل جهد ممكن كي ندرسه ونفهمه. فكل شخص نحسده يمتلك جزءًا من أجزاء «أحجية» رسم مستقبلنا المحتمل. إن لوحة «الذات الحقيقية» تنتظر أن يتم تجميعها من إلماحات حاسدة تأتينا عندما نُقلّب صفحات مجلة أو عندما نسمع في الراديو أنباء عن تطورات جديدة في المسارات المهنية لأشخاص كانوا زملاء لنا في المدرسة. بدلًا من أن نجري هاربين من ذلك الإحساس، علينا أن نطرح على أنفسنا - بكل هدوء - سؤالًا جوهريًا، لكنه سؤال شافٍ، في ما يخص كل من نحسدهم: «ما الذي أستطيع تعلمه من هذا؟».

حتى عندما نهتم بحسدنا ونحاول فهمه، كثيرًا ما يحدث أن

نظّل «تلامذة ضعفاء» في مدرسة الحسد. تظهر لدينا مشاعر حسد إزاء أفراد بعينهم جملةً؛ فإذا توقفنا لحظة كي نحلل حياتهم، ندرك أن جزءاً صغيراً فقط مما فعلوه هو ما كان له أثر علينا، وأن هذا ما ينبغي أن يقود خطواتنا التالية. فقد لا نرغب في أن تكون لنا حياة صاحب المطعم الناجح كلها، بل فقط مهارته في بناء مؤسسته. وقد لا تكون لدى الواحد منا رغبة في أن يصير خزّافاً، لكنه محتاج أن يكون لديه في العمل مزيد من تلك البهجة التي رآها في عمل الخزّاف الذي يعرفه. ما نحن معرّضون لخطر نسيانه هو أن الخصائص التي ينصبّ عليها إعجابنا ليست منحصرة في هذه الحياة الجذابة بعينها، أو تلك. من الممكن التماس «جرعات» منها، أصغر أو أضعف، في ما لا عدّ له من الأماكن الأخرى؛ وهذا ما يفتح أمام المرء إمكانية ابتكار نسخ من الحياة التي يريدّها تكون أكثر واقعية وأكثر قابلية للتحكم.

تمرين

ليس من المعتاد أن نعتبر الحسد أمراً مفيداً. إلا أن كل لحظة حسد نعيشها تتيح لنا فرصة لأن نعرف ما يجذبنا... في أعماقنا. فمن خلال دراسة حسدنا بمزيد من التفصيل، نستطيع تحديد ما نحس أننا مفتقرون إليه فنتأمل (بعد أن نكون وضعنا هذا في ذهننا) ما ينبغي أن نسعى إليه.

الخطوة الأولى

فكر في شخص تحسده. سجل قائمة بما يثير إعجابك مما تراه موجوداً عند ذلك الشخص وغير موجود عندك.

على سبيل المثال:

- تتكلم واثقة؛ ناجحة؛ تستخدم أفكارها الخاصة؛ ثرية.
- يصغي جيداً؛ تتاح له فرصة التحدّث مع أشخاص رائعين؛
ذكي؛ يحبه كثيرون.

- عقل منظم؛ متأنّ دائماً؛ لديه موقع مضمون في عمله.
- مجدّة في عملها؛ تقدّم على مخاطرات كثيرة؛ لا تخشى
المتطلبات الكبيرة (في ما يخص المال)؛ لديها حس أخلاقي
رفيع.

والآن، اسأل نفسك ما هو الشيء، تحديداً، الذي يجذبك إلى
شخصٍ ما. أهو كل ما دونته في قائمتك، أم أن ثمة أمراً أو أمرين
لهما دور خاص في جعلك تشعر بالحسد وتتوق إلى أن يكون
لديك ما يماثل ذلك؟

الخطوة الثانية

بعد أن تكون قد حدّدت الأشياء التي ينصبّ عليها حسدك،
اسأل نفسك كيف تستطيع أن تجعلها موجودة في حياتك،
هل تستطيع تخيل ألا تكون ذلك الشخص نفسه، لكنك، مع
ذلك، تتمتع بهذه الأشياء التي تعجبك (الثراء، الاستعداد لتقبل
المخاطر، العقل المنظم)؟ قد يتبين لك أنها موجودة لديك كلها،
لكن بدرجة أقل. فكر كيف يمكن أن تكون حياتك إن ازداد ما
لديك من هذه الأشياء، ثم فكر في الخطوات العملية الأولى التي
تستطيع القيام بها كي تصل إلى تلك النقطة.

علينا أن نتعلّم كيف نستفز أفكارنا المختبئة في لحظات رضا
أو كرب تبدو صغيرة جداً وتكون مبعثرة عبر مراحل حياتنا.
عندما ننتبه إلى مقدار ما في عقولنا من غموض، وكم يصعب

علينا (هذا أمر طبيعي) أن نصل إلى إجابات عن أسئلة معقدة (لكنها ذات أهمية كبرى) عن مستقبلنا، يصير ممكناً أن نكتسب منظوراً جديداً إلى الأمر كله. عندها، نبدأ فهم أن تحليل مسارنا المهني سوف يستغرق زمناً، وأن له مراحل كثيرة، وأن الوصول إلى إجابة فورية يمكن أن يأتي بنتيجة معاكسة. نفهم أيضاً أن مهمة فهم ما ينبغي على المرء فعله خلال فترة وجوده القصيرة في هذه الدنيا مهمة نبيلة، دقيقة، رائعة إلى حد عجيب.

تمرين

بعض الأحيان، تكون أفكارنا عن نوع العمل الذي يمكن أن نحبه شديدة العمومية.

قد تتبادر إلى الذهن أمور كهذه:

- أحب أن أقوم بشيء إبداعي.

- من الممكن أن يكون بعض السفر أمراً حسناً.

- أحب أن أجنبي بعض المال.

- أحب أن أدخل مجال الاستشارات، لكنني أخشى أن يكون مضجراً.

- قد يكون العمل في مجلة حيناً من الزمن أمراً ممتعاً.

- السياسة؟ أم أن هذا جنون؟

- يقلقني احتمال أن يكون في العمل من يفرض عليّ أوامره.

- أنا مهتم بحركة الحقوق المدنية.

- هناك مذيع راديو أحب كثيراً أن...

الخطوة الأولى

سجل قائمة رغباتك، ولا تتحرّج من شيء. اسمح لنفسك بأن

تكون حائزاً أو شديد الإسهاب أو صاحب نزوات.

الخطوة الثانية

لاحظ كم تكون قائمتك غامضة (من غير أن يخيفك هذا). ليس لنا أن نشعر بأي حرج إزاء ما يمكن أن تتسم به قائمة قراراتنا في ما يخص العمل من غرابة. لا مشكلة إن أتت الأفكار الأولى مجزأة، وإن بدت لك مبعثرة أو مفتقرة إلى التركيز.

الخطوة الثالثة

إن من خلف كل نقطة سجّلتها في قائمة ما يمكن أن نسميه «نقاط إثارة» تجارب في حياتك أدت إلى ظهور هذه الأفكار. ومن الممكن أن تكون هناك صورة أو مشاهد بعينها تتبادر إلى ذهنك عندما تفكر في كل أمر من هذه الأمور. فمثلاً، عندما تفكر في التوجه إلى «السياسة»، تتخيل نفسك واقفاً تلقي كلمة -صورة على صلة بخبر عن البرلمان رأيته على شاشة التلفزيون ذات مرة.

حدّد مقابل كل بند سجلته في قائمتك الخبرات والتجارب المهمة الكامنة من خلفه أو الصور التي تبادرت إلى ذهنك. قد يبدو قسم من النقاط التي تثير حماسك غريباً تماماً؛ وقد تبدو تلك أموراً صغيرة، بل حتى مرتبطة بخيالات عندك... لكن عليك أن تحتفظ بها.

أمثلة:

- ذهبت إلى معرض عن ماتيس ورأيته يقطع بعض الأشياء في فيلم عنه.

- جميل ما فعلته مؤسسة بيل وميليندا غيتس من أجل شبكات الوقاية من البعوض في أوغندا.

- قرأت عن فيلا فيها طبّاح مقيم وفكرت كم يمكن أن تكون الحياة هناك عظيمة.

- في بلدي أطفال كثيرون ليس لديهم من يعتني بهم.
- بدا الناس رائعين جدًا في ذلك البرنامج الوثائقي في مجلة «فوغ». إنهم مختلفون كثيرًا عن أبي وأمي.
- أحببت الإقامة في لاهاي ورؤيتهم يبنون بيوتًا رائعة من الآجر.
- أحب أن أكون استشاريًا لدى مديرين تنفيذيين كبار فنذهب في جولات مع مجموعة ساحرة، وتكون السيارة في انتظارنا في المطار.

الخطوة الرابعة

- ثمة قفزة ذهنية كبيرة نقوم بها، ألا وهي أن نخطئ تصنيف اهتماماتنا. فكثيرًا ما يحدث أن نتوصل إلى استنتاجات كبيرة استنادًا إلى أسس واهية جدًا.
- من الممكن أن تخبر العالم بأنك راغب في العمل في مجال الاستشارات. لكن الحقيقة هي أنك متحمس لفكرة أنهم يدفعون لك ثمن الوجبات وأن السيارة تنتظرك كي تأخذك من المطار. هنا، تكون قد أخطأت تصنيف ما يثير حماسك حقًا.
 - تقول للآخرين، ولنفسك أيضًا، إنك تريد العمل في مجلة. لكن اهتمامك الحقيقي يكون أكثر تحديدًا ودقة: أثار حماسك التآلق الذي رأيته في برنامج وثائقي عن واحد من المشاهير في عالم الأزياء. إلا أن ذلك التآلق موجود في أماكن كثيرة أخرى، وليس مقتصرًا على العمل في تلك المجلة.
 - قارن بين القائمة التي وضعتها في الخطوة الثالثة والقائمة التي وضعتها في الخطوة الأولى. انظر إلى الاستنتاجات التي خرجت بها من التجارب والتخيلات التي كانت لديك في البداية. انتبه إلى المواضيع التي أخطأت فيها تصنيف رغباتك، أو أخطأت فيها تسميتها.

الخطوة الخامسة

ثمة خطأ شائع نقع فيه، ألا وهو عدم تحليل الحماسة الأصلية، أو الحافز الأصلي. نفشل في أن نوضح بدقة ما يثير اهتمامنا فعلاً.

- أنت تحلم بأن تعمل مذيغاً في الراديو (مثلما يعمل بطلك المفضل). ولكن، ما الشيء الباعث على الإثارة هنا؟ الحقيقة أن تلك الأحاديث وذلك البحث عن حِكَم في الحياة هو ما يعجبك. ليس من الضروري أن تكون لهذا الأمر صلة بالراديو.

- تشعر أن هناك أطفالاً كثيرين ليس لديهم من يعتني بهم. وقد تأثرت تأثراً كبيراً عندما تابعت برنامجاً وثائقياً عن هذا الأمر. عندما تسبر حقيقة مشاعرك، تكتشف أنك مهتم بأن يتلقى الناس مساعدة جيدة كي تكون لهم علاقات جيدة... ثمة ميادين عمل كثيرة تتيح لك متابعة هذا الاهتمام. راجع قائمة التجارب والصور، وصف بمزيد من التفصيل ما هو حقيقي بالنسبة إليك. لماذا تأثرت أو تحمست بهذه الطريقة؟ عبر بمزيد من الدقة عما أثار اهتمامك عن كل حالة من تلك الحالات.

نتيجة

عندما نتوصل إلى معرفة اهتماماتنا معرفة أفضل، من الممكن أن نصير أفكارنا الأولية عما قد نجبه موضع مراجعة - بل من الممكن أحياناً أن نُسقط بعض النقاط من القائمة. على نحو مماثل، يمكن أن تساعدنا مهمة تحليل خبراتنا وصورنا العقلية في توضيح ما نريده حقاً. ومن الممكن أن يدفعنا توضيح ما يشكل حافزاً لنا إلى السير في اتجاهات جديدة أفضل.

مَواطنُ المَسرَّةِ في العمل

أ- تحديد ما تحبّه

نعلم ما الأعمال التي يمكن -نظريًا- أن تكون ممتعة لنا، لكننا لا نجد إلا في ما ندر ما يدفعنا إلى عزل وتحليل ما نستطيع أن نسميه «النقاط السارة» المحددة التي يتيحها لنا هذا العمل أو ذاك. فنحن نتصرف على أساس إحساس عام مفاده أن من الممكن للمرء أن يجد عمله «لطيفًا» إن عمل طيارًا، أو أدار فندقًا، أو صار طبيبًا بيطريًا، أو قدّم عروضًا تلفزيونية. مع هذا، لا نذهب إلى التنقيب عن دقائق وتفاصيل النقاط التي قد تبدو ممتعة لنا في أية واحدة من تلك المهن. ندرك أن ما من عمل، حتى أحسن الأعمال على الإطلاق، يمكن أن يكون ممتعًا طيلة الوقت. وندرك أن أيامًا كثيرة ستكون أيام ضجر أو إحباط. إلا أن كل عمل من الأعمال التي تجذبنا بالقدر الكافي سيكون جذابًا لنا لأنه يتيح لنا لحظات من البهجة والارتياح الشديدين التي تتجاوب مع جوانب مهمة في شخصية الواحد منا.

ليس بالأمر الشائع لدينا أن «نُشرِّح» كل عمل بحثًا عن نقاط المسرّة هذه، أو أن نعرف مقدار تجاوب نفوسنا مع هذه الحالة أو تلك. فنحن ميالون إلى فهم أمور كثيرة عما يفعله

الناس، لكننا لا نفهم إلا القليل عما توفره كل مهنة - من الناحية النظرية - من أمور نراها ممتعة. نتيجة هذا النوع من «الصمت»، قد يصعب علينا تحديد أين يمكن لميولنا الحقيقية في العمل أن تجد تلبية لها.

فنحن أكثر ميلاً إلى بدء فهم أنفسنا انطلاقاً من «نقاط المسرة» التي نتحسسها أكثر من غيرها، ثم نبحت في سوق العمل عن المهن التي يحتمل أن تقدّم لنا ما نفضله من مسرات. ولكن، مهما يكن العمل محددًا تحديداً واضحاً، فإن المحتمل أن تكون مواطن المسرة التي يتيحها لنا مُصنفة ضمن فئات عامة. عندما نكف عن التركيز على أمور من قبيل الراتب أو المقتضيات الفنية، نستطيع التكلّم على أي عمل من حيث كونه «جملة متميزة» من نقاط المسرة.

تبدو هذه المهمة صعبة لأننا لا نمتلك «مفردات المسرة». وإذا حاولنا أن نبدأ استنباط تلك المفردات، فمن الممكن أن نتوصل إلى قائمة تضم ما لا يقل عن اثنتي عشرة مفردة يمكن أن توضح لنا ما يحاول الناس التعبير عنه عندما يقولون - بطريقة سطحية - إنهم «يحبون» أعمالهم.

لن يشتمل أي عمل على النقاط الاثنتي عشرة كلها معاً، أو أن تلك النقاط لن تكون كلها مشتملة فيه على قدم المساواة. من هنا، فإن ثمة جانباً بالغ الأهمية في إدراك المرء «هويته» في ما يخص العمل، ألا وهو تحديد كيف يمكن أن يبدو ترتيب أولوياته بحسب ما تحققه له من رضا. فعندما نستعرض

قائمة «نقاط المسرة»، ندرك أن ثمة خيارات فيها «تتكلم» مع نفوسنا بصوت أقوى مما تتكلم به غيرها. بعد ذلك، نستطيع أن نبدأ ترتيب تلك الأولويات بحسب تفضيلاتنا. قد تفاجئنا «أذواقنا»، وقد تظهر لنا أفكار غير متوقعة فتتغير الأولويات تبعًا لذلك. فمن خلال استرشادنا بمقدار استجابتنا لنقاط المسرة المختلفة، تصير لدينا «مادة» نستطيع استخدامها كي نبدأ رسم نموذجنا الخاص بنا عما ينبغي أن نبحث عنه في العمل الذي قد نحبه في يوم من الأيام.

اثننا عشرة نقطة مسرة في العمل

1 - مسرة جني المال

- عندما كنت في التاسعة من العمر، أحببت صنع البسكويت من أجل كشك يشتري منه الناس ما تصنعه، فيأتيك ذلك بأرباح مالية. لم يكن سرورك ناجمًا عن المال في حد ذاته، بل عن حماسك لرؤية الناس يحبون ما تفعله ويسرهم أن يبرهنوا على ذلك من خلال تقديم شيء لا خلاف على قيمته: إنه المال. وبعد ذلك رحلت تضيف طبقة من السكر الملون؛ وكان أمرًا ساحرًا أن ترى ما يفضله الناس وما لا يفضلونه من ألوان. تعلمت من هذه التجربة، وصارت لك ثقة بنفسك.

- تنتشي كلما أصبت تخمين ما يريده الآخرون - مع أن الأمر ليس تخمينًا فحسب، بالطبع، لأنك تبحث دائمًا عن تلك الإشارات الكاشفة الصغيرة التي لا يدرك

الناس أنهم «يرسلونها»-. تحب أن تحقق أرباحًا لأن ذلك -من نواح كثيرة- إنجاز من إنجازات علم النفس: مكافأة لأنك أصبت تخمين حاجات الآخرين قبل أن يدركها منافسوك.

- تمضي في العالم مدرِّكًا مقدار ما يمكن تغييره: إذا سرت في شارع فقد تقول في نفسك: «هذه المباني العائدة إلى مطلع القرن العشرين ليست إلا قذى للعين، ومن الممكن هدمها وإقامة كتلة من المباني الجميلة من الأجر كي تحل محلها». تلاحظ كومة من صناديق الكرتون تنتظر أن يأخذوها لإعادة تدويرها. فتقول في نفسك: «أليست لهذه الصناديق استخدامات أخرى؟». تدرك أن كل نقص أو قصور ليس إلا فرصة «بزنس» تنتظر ولادتها.

- الجاذبية الخاصة للمال بالنسبة إليك هي ما يعبر عنه كسبه من اعتراف بمهاراتك ونفاذ بصيرتك. وأنت تحب حقيقة أن أرباح هذه السنة أعلى من أرباح السنة التي سبقتها لأن هذا تأكيد على أنك كنت محققًا في جملة واسعة من قرارات صغيرة اتخذتها على امتداد شهور كثيرة. هذا أوضح دليل على أن أحكامك كانت صائبة.

- لا يدرك الجميع هذا، لكن جني المال فيه مسرة ذهنية بالنسبة إليك. فأنت تستمتع بفهم حاجات زبائنك بأفضل حتى من فهمهم لها. تحب أن تتبكر حلولًا لمشكلات

قبل أن ينتبه غيرك من الناس أن هناك مشكلات ينبغي البحث عن حلول لها.

- يعجبك أن جني المال مرتبط بمجموعة فضائل بسيطة: الفهم، والجد في العمل، والكفاءة، والانضباط، والدهاء.

- تدرك كم يمكن أن يكون امتلاك قدر من المال أمرًا حسنًا (جميل أن يستخدم المرء «المسار السريع» في المطار، وأن يكون لديك مال لشراء عمل فني من معرض لواحد من الأصدقاء). لكن ثمة فكرة واضحة في ذهنك وهي أن هذا ليس من مسرات العمل: هو مسرة آتية من نتائج العمل. ما تجده ممتعًا في عملك هو عملية توليد الأرباح من خلال تطبيق أفكارك على مشكلات موجودة في العالم.

2 - مسرة الجمال

- يسرك أن تكون الطاولة مرتبة ترتيبًا أنيقًا: الانسجام بين كأس الماء الرشيقة وبين سكين وشوكة جميلتي التصميم وطبق خزفي بسيط جدًا. وإذا كانت الشمعة مُزاحة عن وسط الطاولة قليلًا، فأنت تحسّ في نفسك دافعًا شديدًا إلى تصحيح موقعها.

- عندما كنت طفلًا، كانت عندك ساعة يد تحبها كثيرًا لأن لون حزامها جميل جدًا: أخضر داكن في وسطه صف من مربعات صغيرة حمراء. وكنت تحب أن تعتني

بتغليف الهدايا كلما حلّ موعد عيد ميلاد واحد من والديك، وتغتاظ عندما لا تستطيع أن تطوي نهايات الورق طيًا أنيقًا. كنت تحاول دائمًا استخدام الحد الأدنى من الشريط اللاصق (ثلاث قطع صغيرة فقط) لا لأنك تخاف أن ينفد بل لأنك مستمتع بذلك الإحساس الذي يقول إن «الأقل أحسن»، مع أنك كنت غير قادر على ابتكار هذا التعبير في ذلك الوقت. وكنت شديد الإعجاب بدراجة صديقك لأن عجلتها من مقاس غير مألوف، ولأن هذا كان يبدو لك متناسبًا مع «شخصية الدراجة». كنت تحب متابعة الأولاد الذين يتقنون لعب كرة القدم لأن أساليبهم تسحرك: يؤدي واحد منهم حركات صغيرة سريعة جدًا بحيث تبقى الكرة قريبة من قدميه؛ ويجري الآخر بخطوات واسعة كأنه يقفز قفزًا، ويميل إلى الخلف كلما أراد أن يرمي الكرة مسافة بعيدة.

- أيام المدرسة، كنت تحب أن تعني كثيرًا بوضع خط تحت عنوان الموضوع الذي تكتبه: كانت لك تجارب مع الخطوط المتعرجة في سنة من السنين؛ وفي سنة أخرى، صرت تستخدم المسطرة وتفكر طويلًا في مقدار ثخانة الخط. وفي بعض الأحيان، كنت تمضي في تزيين العنوان وقتًا طويلًا إلى حد لا يترك لك متسعًا لكتابة الموضوع نفسه.

- ترى مبنيين ليسا على استقامة واحدة فيلفت ذلك انتباهك:

هذا ما يفسد مظهر الشارع ويجعلك تتمنى لو أن أحدًا قد اهتم بالأمر ولاحظ كم يؤدي النظر هذا التفاوت. تتمنى لو كنت قادرًا على العودة في الزمن كي تصحح ذلك الخلل.

- وقت الشتاء، كنت تحب النظر إلى حقل محروث، تربته بنية اللون ومن خلفه، عند الأفق، صف من أشجار رمادية فقدت أوراقها.

- يشير انتباهك نوع الخط المستخدم في كتاب عن تاريخ ألمانيا، ويعجبك كثيرًا.

- قد تستمتع بفيلم من الأفلام لأن فيه لقطات جميلة داخل البيوت (يتجه انتباهك إلى شكل الغرفة ومواضع الأثاث فيها وانحناء مقبض الباب) لهذا السبب، تتغاضى عن هفوات كبيرة في الحكمة أو عن ضعف الحوار.

- تلاحظ أن سرورك لرؤية غرفة الفندق الأنيقة كان أكبر كثيرًا من سرور شركائها بها.

3 - مسرة الإبداع

- كنت في السابعة من العمر، وكانت قطع لعبة «ليغو» كلها أمامك على الأرض. هذه واحدة من أجمل اللحظات عندك لأن الاحتمالات الكثيرة لكل ما تستطيع تركيبه من أشكال جميلة لا تزال هناك، موجودة في مكان ما. تسحرك تلك الإمكانيات. وكنت تحب أن تقص علب الورق المقوى (كان نصل سكين الخبز المسنن مثاليًا

لهذه المهمة). وقد عشت لحظة لا تُنسى عندما وصلت آلة غسل الأطباق ضمن صندوق كبير تمنيت أن تجعله بيتاً تعيش فيه. فتحت في ذلك الصندوق نافذة، وفرشت أرضه بالبطانيات، ووضعت فيه وسائد وشوكولاته بالحليب. كنت تتمنى أحياناً لو أن أغنياتك المفضلة مختلفة قليلاً - لعله كان ينبغي لذلك الجزء الجميل أن يتكرر أكثر أو أن يخفت الصوت في آخر الأغنية بدلاً من أن يعلو. أردت أن تدخل عليها تعديلات من عندك (مع أنك تراها جميلة، حتى من غير تعديل). قبل ذهابك إلى النوم - في طفولتك - كنت تتخيل كيف يمكن أن يتغير ما يجري مع الشخصيات التي تحبها في قصة من القصص، فما الذي كان حدوثه ممكناً لو أنهم لم يتأخروا عن موعد ذلك القطار؟ ... لعله كان من المحتمل أن يعيشوا مغامرات مختلفة تماماً! وفي خيالاتك الجنسية، تحكي لنفسك دائماً قصصاً عن حياة أبطال تلك القصص الإباحية: الملابس التي يرتدونها في العمل، وتفاصيل ما لديهم في بيوتهم، وكيف يكون إحساسهم عندما يشترون شيئاً عن طريق الإنترنت. أحياناً، تنتبه إلى أنك صرت تفكر فيهم، لا في الجنس.

- تحب أن يُطلب منك تخيل المستقبل: هل يتعين علينا دخول السوق الأميركية؟ هل يستحق الأمر أن نطبع بطاقات تهنئة؟ هل يُستحسن أن نتعامل الآن مع شركة

تركية؟ أنت تجد سهولة كبيرة في هذا النوع من التجارب الذهنية. أحياناً، تحب أن تتخيل كيف يمكن أن يكون نظام التعليم المثالي، أو كيف يمكن أن يكون مظهر المدينة المثالية.

- تستمتع عندما تفكر في الصور التي ستكون أفضل من غيرها إذا وضعت ضمن عرض تقديمي؛ وأنت تحاول دائماً أن تبتكر طرقاً أفضل لتوصيل المعلومات. ذات مرة، وقعت على صورة وحيد قرن غاطس في ماء النهر حتى أذنيه فاستخدمتها كي تجعل زملاءك يرون مدى خطورة الوضع.

- يظن الناس أنك تحب الجدة في حد ذاتها، لكنهم مخطئون إلى أقصى حد لأن الحقيقة هي أنك تفضل الحلول الأحسن وتعرف أنها غالباً ما تكون كامنة في أماكن غير متوقعة. أنت تحب البحث عنها، وتحب اصطياها.

4 - مسرة الفهم

- كثيراً ما كنت تضايق والديك (أنت تدرك هذا عندما تستعيد ذكرياتك) بأسئلة تكاد تكون من غير معنى: لماذا ندعو الطيور «طيوراً»، ولا ندعوها بأسماء مختلفة؟ كيف يكون شكل الشامبانزي الصغير إذا حلقنا جلده؟ في الكواكب الأخرى، هل لديهم زمن؟ كنت تريد أن يكون لكل شيء سبب وجيه.

- كنت مصدومًا قليلًا عندما أدركت أن والدك غير قادر على أن يشرح لك ما الذي يجعل مجفف الشعر يعمل عندما نصله بالكهرباء. فكيف يستطيع شيء خارج من الجدار أن يجبر المروحة الصغيرة في مجفف الشعر على الدوران؟

- ذات مرة، عندما كنت في الحادية عشرة، قالت واحدة من صديقاتك إنها تغار من أختها فسحرتك تلك الفكرة لأنها جعلتك قادرًا على فهم ما يجعل واحدًا من الناس غاضبًا من غيره.

- تحب أن تدوّن أفكارك على الورق. يصير ذهنك أكثر وضوحًا ويهدأ توترك. هناك أشخاص يشربون أو يخرجون للجري كي يسترخوا. وأما أنت، فتحب أن تتأمل.

- في المدرسة، أحسست بأنك تتعرض للغش عندما قالت معلمة الرياضيات إنها لا تستطيع، في تلك اللحظة، أن تشرح لك السبب الذي يجعل هذه الطريقة في حل المسألة ناجحة... ليس مطلوبًا منك الآن أن تعرف شيئًا آخر.

- يسرك أن يتعمق تقرير إخباري في شرح الأمور فيوضح السبب الذي جعل التوصل إلى تسوية ممكنًا، أو الذي جعل حزبًا من الأحزاب يغير سياسته في شأن الإسكان. تكفّ الأمور عن كونها غامضة وتصير الأخبار مفهومة

(لا يعجبك الأشخاص الذين يحبون الغموض).

- تحس بأن الناس كثيرا ما يتركون الأمور من غير حلول: لا يوضحونها كما ينبغي، ولا يبدون فضولاً في شأن الاحتمالات الكثيرة الممكنة عندما نريد تفسير ما يجعل الناس يتصرفون بهذا الشكل أو ذاك.

- يعجبك عندما يمكن إعطاء مجموعة كبيرة من حقائق تبدو متناقضة تفسيراً مترابطاً. عادة ما يكون هناك نمط خفي أكثر وضوحاً وبساطة، لكنه ينتظر من يكتشفه.

5 - مسرّة التعبير عن الذات

- عندما كنت طفلاً، كنت تحب أن يطلب الكبار رأيك (كنت تنزعج أحياناً لأنك لا تعرف رأيك في هذا الأمر أو ذاك، لكنك حقاً ترغب في أن يكون لك رأي).

- عندما شاركت في مسرحية في المدرسة أعجبك أنك وجدت نفسك قادراً على التعبير عن جزء من ذاتك من خلال الشخصية التي تلعبها.

- تغضب عندما لا يصغي الناس إليك؛ وتودّ أن تجعلهم متبهمين إلى ما تقول.

- يظن بعض الناس أنك شخص نرجسي، لكنهم مخطئون في هذا: كل ما في الأمر هو أنك تحب إطلاع الآخرين على أفكارك. ليس هذا مبالغة في اهتمامك بنفسك، بل هو نوع من الكرم.

- في واحدة من الوظائف التي عملت بها، كان لديك مدير

انفرد بك بعد أحد الاجتماعات وقال لك أن تخفف حماسك قليلاً، لأن ما تفكر فيه لا يكون دائماً ذا صلة بجدول الأعمال. أزعجك ما قاله المدير، لكنك استطعت في وقت لاحق إدراك أنه كان محقاً في ما قال. أحياناً، تكتب في استمارة الملاحظات إلى أن تمتلئ كلها قبل أن تفرغ مما تريد قوله.

- يعجبك أن يسألك الناس أسئلة وجيهة عن نفسك.

- تبادرت إلى ذهنك فكرة كتابة سيرتك الذاتية.

- تتمنى كثيراً أن تُجرى معك مقابلة، لكنك تجد متابعة المقابلات مزعجة جداً. تتمنى أن تصيح: اذهب إلى لب الموضوع وقل كلاماً مفيداً!

- عندما تنجز أمراً، تكون راغباً في أن يرى الآخرون بوضوح أنك أنت الذي أنجزته.

- تفاجئك فكرة أنك تستطيع أن تُجسّد شخصيتك من خلال صنع شيء من الأشياء (كرسي، أو حديقة، أو سياسات حكومية). فكرة مغرية إلى حدٍّ غريب.

- تجد نفسك مسروراً كثيراً عندما تكتشف أنك استطعت أن تمس روح «واحد من الناس».

6 - مسرّة التكنولوجيا

- عندما كنت صغيراً، أهدتك خالتك مجموعة من المفكات المرتبة بحسب الحجم، من الصغير إلى الكبير. لم تكذب تستخدم تلك المجموعة أبداً، لكنك أحببت كثيراً فكرة

أن كل قطعة من تلك المجموعة كانت مصممة بحيث تعالج «وضعًا» مختلفًا قليلًا. وكان يسرّك كثيرًا أن تأتي لحظة تطرأ فيها مشكلة في مفصلة باب المطبخ فتقول لك أمك: «أين مجموعة المفكات التي عندك؟». عندها تختار المفك المناسب لإنجاز المهمة (كان مفكًا من مقاس 3 ملم ذا رأس متصالب).

- عندما كنت في السادسة تقريبًا، كففت عن اعتبار السيارات سيارات فحسب، وصرت تفكر في أنها آلات. وكانت تسحرك رؤية تلك العلب المعدنية المتحركة التي فيها مؤشرات خاصة، وشاشات مضيئة، ونوافذ تنفتح بلمسة واحدة - خلافاً لنوافذ البيت - أحيانًا، لا تستطيع فتح النافذة لأن أمك أبطلت عمل مفاتيح النوافذ الخلفية. حيرك أنبوب العادم وشبكة المبرد لأنهما كانا يوحيان لك ببعض ما تحتاجه تلك الآلة العجيبة حتى تعمل.

- تسحرك فكرة أننا لا نزال في بداية مشروع تلبية حاجاتنا عن طريق التكنولوجيا. وتحب أن تتخيل أين سنصل بحلول سنة 2180.

- أنت لا تعتبر التكنولوجيا مؤلفة من الآلات ومعالجة المعلومات فحسب؛ فقلم الرصاص يعجبك أيضًا لأنه نموذج من نماذج التكنولوجيا: بسيط، طويل، ذكي، مثالي من أجل مهمته (وفي سرّك، تحب أيضًا، مبراة الأقلام، بل إنك تبري القلم أحيانًا كي تستمتع باستخدام

هذه الأداة الصغيرة الممتازة وبرؤية قشرة الخشب الرقيقة الملتوية التي تخرج منها). في نظرك، الجوارب أيضًا نوع من التكنولوجيا ندخل أقدامنا فيه.

- يزعجك أن يربط الناس بين المستقبل وبين الحقائق الظهرية التي تجعلنا قادرين على الطيران. سوف يكون الأمر أشد إثارة من ذلك، بل أشد كثيرًا.

- تحب أن تسأل: ما جوهر هذه المشكلة، وكيف نستطيع حلها بسهولة أكبر وتكلفة أقل؟

7 - مسرّة مساعدة الآخرين

- في طفولتك، كنت تحب أن يُسمح لك بالمشاركة. كانت أختك تكره أن يُطلب منها أن تُفرغ آلة غسل الأطباق. لكنك كنت تحب ذلك لأنه يجعلك تحس بأنك تقدّم مساهمة. وكان يعجبك ذلك الإحساس لأن أمك وأباك يستطيعان الآن التفرّغ لإعداد الطعام، أو لاستدعاء من يصلح المغسلة: هذا لأنك تساعدهما فتيح لهما وقتًا لفعل ذلك.

- تحب سيناريوات الإنقاذ في الألعاب. أسماك مفترسة كانت موشكة على التهام واحد من الناس، لكنك استطعت أن تساعده في الصعود إلى الزورق في الوقت المناسب (في الحقيقة، كان ذلك الزورق أريكة).

- كنت تحب أن يخبرك أصدقائك بما يزعجهم. لم تدر ما تستطيع فعله من أجلهم، لكنك كنت تحب أن تحاول

- قول عبارات تريحهم (بعض الأحيان، كان يزعجك كثيراً أن يرفضوا محاولتك النابعة من حسن نواياك).
- تحسّ أن عملك ذا معنى لأن له أثرًا في حياة الناس. فبطريقة من الطرق، يجلب لهم مسرّة أو يحل لهم مشكلة. يسعدك حقًا أن تعلم بذلك. تحبّ فكرة رؤية نتائج ما تفعله ظاهرة في حياة الآخرين.
- كان والدك يقلق كثيراً عندما يظن بأنه أضاع مفاتيح السيارة. وكنت تحب أن تلعب دور الشخص الذي يستطيع تهدئته فتقول له: «فكر... ماذا فعلت عندما عدت إلى البيت مساء أمس؟». ذات مرة، عثر على المفاتيح في الحمام.

8 - مسرّة القيادة

- لست تريد أن تكون في موقع القيادة فحسب، بل أنت تحب أن تكون في ذلك الموقع (منذ زمن بعيد، أدهشك الفارق بين هذين الأمرين). كان كثيرون من زملائك في المدرسة يحبون أن يتم اختيار أحدهم «كابتن الفريق»، لكنهم لم يكونوا يحبون تولي المسؤولية حبًا حقيقيًا، بل يريدون نيل المكانة فقط. وأما ما كنت تريده، فهو تولي العمل، تولي الدور، وأن تتاح لك فرصة وضع أفكارك موضع التطبيق.
- يعجبك أن يلجأ إليك الآخرون طالبين نصحك. وأنت لا تجيبهم بأول ما قد يتبادر إلى ذهنك، لأنك راغب حقًا

في أن تحلّ مشكلاتهم. تريد أيضًا أن يكونوا قادرين على إيلاء أحكامك ثقتهم.

- أنت تحب أن تكتسب القيادة اكتسابًا، لا أن يُعهد بها إليك فحسب.

- تستمتع بسماع قصص القادة الذين لم يحققوا النجاح بموجب المعايير المعتادة. عندما كنت في الرابعة عشرة تقريبًا، قرأت قصة عن قائد عسكري استسلم كي ينقذ جنوده. أنت ترى أنه لم يكسب المعركة، لكنه كان قائدًا حقيقيًا.

- عندما يدبّ الرعب في قلوب الآخرين، تجد نفسك أنك تصير أكثر تركيزًا. تعجبك هذه الخصلة فيك.

- عندما يقول الناس إنهم راغبون في تجنب المسؤولية، إن كان ذلك ممكنًا، يكون النفور أول ما تشعر به إزاءهم.

- عندما كنت صغيرًا أثارت فكرة الشهرة حماسك. لا تستهويك الآن كثيرًا، لكنها تبدو لك وجهًا مؤسفًا من وجوه إتقان المرء ما يفعله.

9 - مسرّة التعليم

- إن ارتكب أحدهم غلطة، فأنت تحب تصحيحها.

- كانت لديك معلمة قريبة إلى قلبك عندما كنت في السابعة من عمرك. كانت تعلم أنك تصغي إليها بكل انتباه وتعلم أنك تبذل أقصى جهدك (حتى عندما تخطئ في أمر من الأمور).

- تحب الإحساس بأنك تزود شخصًا غيرك بما لديك من معارف؛ وتحب قدرتك على تحويل ذعره وإحباطه إلى ثقة وإتقان.

- تعلم أن عليك أن تكون منتبهًا عندما تقدّم دروسك. فالناس لا يحبّون أن يشعروا بأن هناك من يمارس عليهم دور المعلم. إلا أنك لا تحب شيئًا أكثر من «ملء الثغرات» في معارف الآخرين.

10 - مسرّة الاستقلالية

- عندما قدت السيارة وحدك أول مرة، كنت غير راغب في التوقّف أبدًا.

- تحب أن تستيقظ في وقت مبكر جدًا قبل أن يستيقظ غيرك. وذلك لأن هذا يسمح لك بمباشرة أعمالك في هدوء وسكينة.

- بالنسبة إليك، كان أهم ما في تجاوزك مرحلة الطفولة هو تخلصك ممن يستطيعون التحكم بك.

- تحب أن تكون وحدك. نادرًا ما يضايقك الضجر.

- لا تعجبك فكرة الجولات السياحية في وجود مرشد، ولا ضمن مجموعة من الناس.

- أحسست بحماسة كبيرة جدًا عندما قرأت قصة عن شخص ترك عمله في مصرف وأقام شركة لاستيراد الأفوكادو من غرب أفريقيا.

- تحبّ فعلًا أن تتوصّل إلى رأيك الخاص في شأن مزايا

كتاب أو عمل فني، ولا يهتم كثيرًا إن اعتبرك الناس شخصًا غريب الأطوار.

- أتهمت عدة مرات بأنك لست «لاعب فريق». ثمة قدر من الحقيقة في هذا الانتقاد الموجه إليك.
- أنت لا ترى أية مشكلة على الإطلاق في قضاء الأمسية وحدك. يتيح لك هذا فرصة للتفكير والتخطيط. يزعجك أن يوجد أشخاص يحبون الثرثرة دائمًا.

11 - مسرة النظام

- عندما كنت تكتب فروضك المدرسية، كنت تحب حقًا أن تكون كتابتك واضحة. وإذا اضطرت إلى محو كلمة أخطأت في كتابتها بقلم الرصاص، تكون شديد الحرص على ألا تبقى آثار الممحاة ظاهرة. كنت تكره أن ترتكب أية أخطاء عندما تكتب بقلم الحبر. وعندما تخطئ، كنت تلصق قطعًا صغيرة من الورق فوق الأخطاء كي تحافظ على أناقة المظهر العام ونظافته.
- كان دُرج أدوات الطعام يسحرك؛ وكنت تحب حقيقة أن لكل شيء فيه موضعًا خاصًا به. تنزعج كثيرًا عندما لا تبالي أختك بهذا الأمر بل ترمي الملعقة - من غير أن تهتم أبدًا - في الحيز المخصص للسكاكين.
- مع أن أداءك في العلوم لم يكن حسنًا جدًّا، لكنك وجدت الجدول الدوري مغريًا إلى حدٍّ غريب. أعجبتك فكرة أن يكون كل شيء مصنّفًا بحسب عناصره الأولية بحيث

تُختصر فوضى العالم إلى حفنة من العناصر فحسب. لقد مسّت هذه الفكرة وترّا في قلبك مع أنك تفضل النظر من النافذة عندما يشرح المعلم التفاصيل.

- لا يعجبك أن يكثّر الناس عندما يستخدمون كلمة «التصنيف».

- تحب ترتيب مجموعات أقلام التلوين بحسب تسلسل ألوان الطيف، مع أن في هذا الأمر بعض المشكلات بالنسبة إليك... فهل يمكن ضم تدرّجات اللون الأصفر إلى الأبيض أم إلى الأخضر (الأصفر المخضر)؟

- تنزعج عندما لا يستطيع الناس سرد قصة وفق ترتيبها السليم («أوه، نسيت أن أقول...»).

12 - مسرّة الطبيعة

- لا تستطيع احتمال حقيقة أن كثيرًا من النوافذ الحديثة غير قابل للفتح.

- عندما كنت في الثامنة من العمر، كان أمرًا جميلًا أن تجثو على ركبتك ويديك كي تنظر عن كثب إلى قفد أو حلزون. كان إحساسك أن هذا الحيوان يمكن أن يصير صديقًا لك. وكنت تحب أن تتخيل حياته، لأنك ترى فيها ما يثير اهتمامك مثلها مثل حياة الإنسان.

- أنت تحب التخيم، خاصة إن لم يكن الطقس جيدًا. يثير حماسك تحدي نصب الخيمة أثناء عاصفة.

- كنت في نزهة طويلة في الريف مع أسرتك عندما بدأ

هطول المطر. تدمر الجميع، لكن ذلك أعجبك. اكتفيت بأن وضعت على رأسك قبعة واقية، وسررت لرؤية نقاط المطر تقطر على أنفك.

- كانت لديك مشاعر متضاربة عندما تجلس وتتابع برامج ديفيد آتنورو الوثائقية. كانت تثير اهتمامك كثيرًا، لكنك لم تكن تحب أن تتابعها وأنت جالس على الأريكة وفي حرك طبق من أصابع السمك. تريد أن تكون هناك، في مستنقعات سهول سيرنغيتي أثناء فصل الأمطار، أو أن تتسلق الصخور في جزر كالاباغوس. لا يهملك إن بلغ الطين ركبتك، أو إن أصابت أصابعك خدوش بليغة.

لا نتجاوب جميعًا تجاوبًا متساويًا مع هذه المسرات كلها. يتميز بعضها، ويمكن أن يحتل مكانة متقدمة ضمن قائمة أولوياتنا. أثناء القراءة عنها، من الممكن أن نكون قد بدأنا اكتشاف نقاط المسرة الخاصة بنا، وبدأنا نعرف أن هذه هي أنواع المسرات التي ينبغي أن نبحث عن فرص لتحقيقها في حياة العمل. ينبغي أن نستطلع هذه الأمور عندما نتكلم مع الآخرين عن أعمالهم. إذا قرأنا شيئًا عن المسار المهني لواحد من الناس، فعلينا أن نظل منتبهين إلى ما كان سارًا في زمانه، وأن نتتبع المواقع التي يمكن فيها أن يتقاطع ذلك مع المسرات التي نعتقد بأننا في حاجة إليها. إننا نبحث عن «المنطقة الثمينة» حيث يكون اللقاء بين مواهبنا ومسراتنا من ناحية وبين ما يحتاجه العالم من ناحية أخرى، فذلك هو المكان الذي يتعين علينا أن نحاول وضع مسار عملنا المستقبلي فيه.

تمرين

الخطوة الأولى

اقرأ كل فقرة من الفقرات التي وردت أعلاه، وانظر إن كانت تمسّ أمورًا تثير حماسك أو إن كانت لها صلة بذكرياتك. وفي الفئات التي تجدها أكثر جاذبية بالنسبة إليك، أضف بعض التفاصيل المستمّدة من حياتك بحيث تكون من تلك اللحظات التي وجدتها أمورًا ممتعة في ماضيك أو أمورًا وفّرت لك مسرّة في العمل. قد يكون لا بد من بعض الوقت كي تتبادر تلك النقاط إلى ذهنك. ولكن، بعد أن تصير الفكرة العامة واضحة في ذهنك، أي فكرة وجوب الانتباه إلى مواطن المسرّة، فقد تتذكّر (وأنت في انتظار دورك في الدفع في السوبر ماركت، أو أثناء توقّفك عند إشارة المرور) شيئًا أحببته حقًا عندما كنت في العاشرة فتجد له مكانًا ضمن القائمة. قد يستغرق الأمر زمنًا طويلًا قبل أن نعرف ما تحتوي عليه عقولنا؛ كما أن اكتشاف ما يمنحنا مسرّة حقيقية عملية استطلاع تمتد طيلة حياتنا.

الخطوة الثانية

بعد أن تضيف أفكارك إلى القائمة الواردة أعلاه، من الممكن أن تجد بعض المسرّات شديدة الأهمية بالنسبة إليك، في حين لا تثير مسرّات أخرى حماسة حقيقية في نفسك. دوّن قائمة مسرّاتك مع وضع أكثرها أهمية في الأعلى وإزاحة أقلّها أهمية إلى الأسفل.

سيكون عليك أن تقبل بعض التضحيات عندما تستقر آخر الأمر على عمل بعينه. فسوف تجد أن كل عمل يلبي قسمًا من مسرّاتك تلبية كبيرة في حين يلبي قسمًا آخر منها تلبية أقل: قد

تجد الإبداع، لكن مع فرص أقل لتولي القيادة؛ أو قد تجد عملاً يخصّص زمنًا طويلًا للفهم لكنه لا يتيح إلا فرصًا قليلة لمساعدة الآخرين. من هنا، فإن تصنيف المسرّات بحسب أهميتها يوفر لك صورة عما تجده أعلى قيمة، وبالتالي عما يتعيّن عليك أن تبحث عنه في أي عمل تفكر فيه. وعند الضرورة، يمكن أن تتحقّق بعض المسرّات على حساب أمور أخرى.

الخطوة الثالثة

إن توصلنا إلى اكتشاف ما يحقق لنا المسرة عنصر جوهرى من أجل معرفة نوع العمل الذي يشبعنا ويرضيّنا. إلا أن المسرّات في حد ذاتها لا تشير عادة إلى اتجاه بعينه في العمل. ما نستفيده منها هو أنها تتيح لنا طريقة جيدة جدًا لاختبار مدى ملائمة أي عمل يمكن أن نفكر فيه.

اختر أي عمل تبادر إلى ذهنك في أية لحظة من اللحظات وظننت أن ممارسته يمكن أن تستهويك (حتى إن كنت لم تتعامل مع الأمر تعاملًا جدّيًا على الإطلاق). فكر إن كان هذا العمل يمكن أن يوفرّ لك تلك المسرّات التي تحتل المراكز الأولى ضمن قائمتك، أي المسرات التي يعينك أمرها أكثر من غيرها.

حتى إذا توصلت آخر الأمر إلى أن هذا العمل لا يلبي «نقاط مسرّتك» تلبية حسنة فعلاً، يظل ما تستفيده من هذه التجربة أمرًا مهمًا. لديك الآن فهم أكثر وضوحًا لما يجعل هذا العمل غير مناسب لك. كرر التمرين من أجل كل ما فكرت فيه من أعمال مختلفة، حتى تلك الأعمال التي لم تفكر فيها إلا تفكيرًا عابّرًا. انظر إلى القسم الخاص بالعمل على الوجه الآخر من الورقة. الهدف هنا هو أن تتمرّن على تقييم الأعمال المختلفة استنادًا إلى نقاط المسرة.

تمرين

يكون مفيداً لك، أكثر الأحيان، أن تتكلم مع شخص آخر على تفاصيل هذه المسرات (هذه طريقة من أجل تحريك أذهاننا ومساعدتنا في الدخول في التفاصيل أكثر من ذي قبل). عندما نخبر الشخص الآخر عما يجعلنا نحب هذا الأمر، أو عما يجعلنا غير مهتمين كثيراً بذلك، فمن المحتمل كثيراً أن تتبادر إلى أذهاننا معلومات إضافية كثيرة فيصير لدينا فهم أكثر عمقاً وأشد وضوحاً للنواحي التي تثير حماسنا. من هنا، يصير من المستحسن الآن أن نأخذ قائمة المسرات التي وضعناها ونتفق مع واحد من أصدقائنا كي نستعرضها معه ونخبره كل شيء عنها. ليس من المصادفة في شيء أن يكون فعل هذا الأمر مع صديق لنا أمراً حسناً، فهو يمنح الصديق أيضاً فرصة لمعرفةنا بطريقة جديدة مختلفة عما سبق. في الحالة المثلى، وفي لحظة من اللحظات، من الممكن أن ينتقل الحديث أيضاً إلى قائمة مسرات الصديق.

بـ مقاومة الميل إلى «التثبيت» على عمل بعينه
من الأمور المهمة التي يمكن أن تجعل تفكيرنا في مسارنا المهني يتخذ اتجاهًا خاطئًا احتمال أن ينشأ لدينا «تثبيت» على نوع بعينه من الأعمال. ثم يتضح، لهذا السبب أو ذاك، أنه خيار غير واعد أو غير واقعي. فمن الممكن أن يكون عملاً يصعب الحصول عليه، أو قد يكون عملاً في حاجة إلى سنوات طويلة من الإعداد، أو قد يكون عملاً في قطاع صار في وضع مضطرب متقلقل مما يعني أن دخوله لن يتيح لنا آفاقاً حقيقية على المدى البعيد.

هذا ما ندعوه تثبيتًا (بدلاً من أن نكتفي بالقول إنه «اهتمام») كي نشير إلى أن التركيز على ذلك العمل صار مشكلة لأن لدينا إحساسًا غامراً يقول لنا إن مستقبلنا مرتبط بهذه المهنة دون غيرها من المهن، لكننا نجد عقبات كبرى قائمة في وجه تحويل فكرتنا إلى واقع.

فمن الممكن مثلاً أن «نثبت» على العمل في ميدان نشر الأعمال الأدبية، لكننا نجد أن فرص العمل في هذا القطاع قليلة جداً وأن الأجور هناك لا تكاد تكفي من أجل تسديد إيجار مسكن قريب مما يعني أننا سنكون مضطرين إلى العيش في مكان بعيد نسبياً وإلى السفر إلى المكتب كل يوم. أو من الممكن أيضاً أن يصير لدينا اهتمام بكتابة المقالات الصحافية الطويلة الجادة، لكن الوضع الاقتصادي لهذا النوع من الكتابة قد صار صعباً جداً. وقد تستولي على أذهاننا فكرة العمل في ميدان السياسة على الرغم من أن فرص إحداث تغيير حقيقي ضئيلة إلى حد مؤلم. من الممكن أن نثبت على العمل في صناعة الأفلام مع أن المنافسة في ذلك القطاع ضارية جداً، ومع أن فرص النجاح ضئيلة جداً لا يمكن الاتكال عليها.

إن حل مشكلات التثبيت هذه كامن في التوصل إلى فهم ما يثير اهتمامنا حقاً فهمًا أكثر دقة. فكلما استطعنا أن نسبر ما يهمننا أمره سبراً أكثر دقة وتحديداً، كلما ازدادت فرصة اكتشاف أن اهتماماتنا وما يتصل بها من نقاط مسرة موجودة ضمن مجال من المهن أكثر اتساعاً مما كنا نظن حتى الآن. المشكلة هي

افتقارنا إلى فهم ما نريده فعلاً (وبالتالي نظرنا إلى سوق العمل)، ذلك الافتقار الذي دفعنا إلى مجموعة خيارات أضيق كثيرًا مما ينبغي.

ليس التثبيت مشكلة خاصة بأمور العمل وحدها. ففي علاقاتنا أيضًا، يمكن أن ينشأ لدينا نوع من التثبيت على شخص بعينه نحبه ونعجب به ولا نستطيع الكف عن «الدوران حوله»... حتى إذا كان، ويا للأسف، غير مهتم بنا، أو حتى إذا كانت معاملته لنا سيئة عندما نكون معه. على الرغم من الإساءة، نقول لأنفسنا (وللآخرين المهتمين بالأمر) إننا لا نستطيع تخيل الحياة من غير ذلك الشخص لأنه «خاص» جدًا. (قد يكون ظريفًا جدًا في بعض الحالات، أو شديد المهارة في العزف على آلة موسيقية، أو لديه نوع من تشاؤم ساخر يعجبنا كثيرًا).

ما ينبغي فعله كي نتخلص من ذلك التثبيت ليس أن نقول لأنفسنا إن هذا الشخص لا يعجبنا أو أن نحاول نسيان شدة انجذابنا إليه. الحل هو أن نتعامل تعاملًا شديد الوضوح والجدية مع ما يمكن أن يكون انجذابنا قائمًا عليه. وبعد ذلك، سنرى أن الخصال التي تثير إعجابنا في الشخص المعني موجودة أيضًا لدى أشخاص آخرين، لكن من غير تلك المشكلات التي تجعل نشوء علاقة مرضية أمرًا مستحيلًا. إن التحري الدقيق لما نحبه في واحد من الناس يبين لنا أننا نستطيع أن نحب شخصًا آخر -صحيح أن في هذا الأمر مفارقة، لكنه يحررنا من معاناتنا-

من هنا، يكون فهم ما يعجبنا -أي فهم ما يمنحنا مسرة- أمرًا فائق الأهمية للتخلص من التثبيت. فمن خلال فهم انجذابنا إلى

خصائص أو خصال بعينها، نُضعف ارتباطنا بأشخاص بعينهم، أو بأعمال بعينها. وعندما ندرك إدراكًا سليمًا ما يجذبنا إلى عمل من الأعمال، نكون قد حدّدنا خصائص يمكن أن تكون موجودة في أعمال أخرى أيضًا. فليس هذا العمل تحديدًا هو ما نحبّه حقًا، بل مجموعة الخصائص التي وجدناها فيه... ربما لأن هذا العمل مثال شديد الوضوح على الخصائص المنشودة. تبدأ المشكلة هنا: الأعمال ذات الخصائص الواضحة جدًّا تجتذب قدرًا زائدًا من الانتباه فيكثر من يتقدّمون إليها مما يؤدي إلى تدني الأجور فيها. مع هذا، فإن خصائصها لا يمكن أن تكون موجودة فيها وحدها، فهي بالضرورة خصائص عامة لا بد من توفرها في أماكن أخرى أقل وضوحًا... لكن علينا أن نعرف كيف نبحث عنها.

فلتتخيل شخصًا استولت عليه فكرة أن يصير صحافيًا. تصير كلمة «صحافي» في حد ذاتها صفة مبتغاة تستولي على كل ما يحس ذلك الشخص أنه راغب فيه. فمنذ سن مبكرة، كان ذلك العمل يوحى له بالتألق والنشاط والإثارة والديناميكية. وصار أمرًا مألوفًا لديه أن يناديه الأب والأم والأعمام والعمات «صحافي المستقبل». بدأ الأمر منذ أن كان في الثانية عشرة. إلا أن قطاع الصحافة صار يعاني تراجعًا خطيرًا، كما أن الساعين إلى العمل فيه كثيرون جدًّا. هذا ما يخلق حالة «انسداد»، أو حالة يأس.

ما يتعيّن عليك فعله هو أن توقف هذا البحث العقيم عن العمل وعن التدريب غير مدفوع الأجر، وتساءل نفسك: ما الأمر الجذاب حقًا في هذه الحماسة للعمل الصحافي؟ ما

المسرّات التي أبحث عنها هنا؟ وهل يمكن أن تكون موجودة في أماكن أخرى، أماكن أفضل ضمن عالم العمل؟ نحن ميّالون إلى حالة من الغموض، لكنها حالة طبيعية جدًا. فعادة ما يكون «الاسم العام» لعمل من الأعمال هو ما يعجبنا. ولكن، إذا اتّبعتنا تحليل نقاط المسرّة، فسوف نبدأ «رفع الغطاء» وإلقاء نظرة أكثر دقّة على المسرّات التي يمكن أن تكون متاحة. وبعد هذه النظرة المدقّقة، من الممكن أن نجد أن الصحافة تتيح المسرّات التالية: القدرة على تناول مسائل سياسية واجتماعية جادة، وعلى تحليل السياسات، وعلى كتابة أفكارنا بأسلوب رشيق، وذلك فضلًا عن الاحترام الذي يناله المرء لأنه صاحب قدرات نقدية.

بعد اتّضاح هذه العناصر، نصير مدرّكين أنها لا يمكن أن تكون مرتبطة بذلك القطاع الذي ندعوه «العمل الصحافي» وحده. فهذا المزيج لا يمكن أن يكون موجودًا في الصحف والمجلات وحدها، ولا يمكن أن يكون ضروريًا فيها وحدها. إنه غير مرتبط ارتباطًا حقيقيًا بأي قطاع بعينه. فمن الممكن لتلك الخصائص أن تظهر (وهي تظهر فعلاً) في أماكن كثيرة أخرى. فمثلاً، قد تكون واحدة من شركات الاستثمار المالي في حاجة عظيمة إلى تحليل الأسواق الناشئة وإلى شرح ما تشتمل عليه من إمكانيات، إلى جانب نقاط ضعفها. وقد تكون جامعة من الجامعات في حاجة إلى تحليل وفهم التغيّرات الجارية ضمن بيئتها التنافسية، وإلى شرح ذلك كله للعاملين فيها بطرق واضحة جذّابة. ومن الممكن أن تكون شركة نفطية في حاجة إلى تحليل

احتياجاتها من العاملين في المستقبل، ومن ثم توضيح النتائج لفرق التوظيف لديها في أنحاء العالم. هذه القطاعات الثلاثة غير منضوية تحت عنوان «الصحافة»، لكنّ فيها متطلبات وفرصًا تتيح المسرّات نفسها، بل نفسها تمامًا، التي كانت في البداية مرتبطة بالصحافة ارتباطًا «ظاهرًا» بعض الشيء.

يكشف لنا التعمّق في تحرّي الأمر أن المسرّات التي نبحث عنها أكثر «حركية» مما كنا نظنّه أول الأمر. ما من شيء يوجب البحث عنها في قطاع الإعلام وحده، وذلك أنها قد تكون متاحة أكثر، وأمنة أكثر، ومجزية أكثر من الناحية المالية عندما نبحث عنها ونجدها في قطاعات اقتصادية مختلفة تمامًا.

ليس الهدف من هذا أن يجعلنا نتخلّى عن السعي إلى ما نريده حقًا. فما «يحررنا» هنا هو رؤية أن ما نحن راغبون فيه موجود في أماكن أوسع كثيرًا من الأماكن التي حددناها أول الأمر.

من الممكن إجراء التحليل نفسه في ما يتصل بالتعليم. لا ضرورة لأن نجريه في مدرسة ابتدائية أو ثانوية، فقد يكون المرء معلمًا في شركة كبيرة من شركات الطيران (عليه أن يعلم الموظفين الجدد أمورًا كثيرة عن طبيعة هذا القطاع)، أو في شركة لإدارة الثروات (عليه أن يعلم الموظفين كيف يتعاملون مع العملاء المزعجين). وقد يدرك شخص كان لديه «تثبيت» على السياسة أن المسرّات التي يبحث عنها (من قبيل التأثير في النتائج الاجتماعية) متوفرة في عمل ذي صلة بالإدارة السياحية أو بشركة للتنقيب عن النفط (قد يكون العمل هناك أعلى دخلًا وأكثر تأثيرًا). لن يبدو هذا تنازلاً إلا إذا لم نفهم جيدًا ما نحاول

البحث عنه فعلاً. الجانب المفاجئ، والذي «يحررنا»، في تحليل نقاط المسرّة هو أنه يكشف لنا استحالة أن يكون قطاع وحيد بعينه هو مفتاح عثورنا على عمل نستطيع أن نحبه. فعندما نفهم الأمر فهمًا صحيحًا، نجد أن المسرّة لحسن حظنا - أمر عامّ يمكن أن نعثر عليه في أماكن كثيرة مختلفة لم تكن متوقّعة أول الأمر. إن المعرفة الواضحة بما نحبه تحرّرتنا كي نستطيع أن نحب على نطاق أكثر اتساعًا.

تمرين

الخطوة الأولى

يمكن العثور على حالات مألوفة جدًا عند الخروج من «التثبيت»، وذلك في ميدان الحب. تذكّر شخصًا أحببته وكان لديك تثبيت عليه (كان لديك تثبيت، لكنه لم يعد موجودًا الآن)... أي إنه أمر حدث وانتهى منذ سنين. ما الذي أعجبك في ذلك الشخص؟ ضع قائمة بما أعجبك. لعلك كنت تحب فيه أنه هادئ، لكنه يصير عاطفيًا جدًا عندما يتكلم معك على انفراد. أو لعلك كنت معجبًا بضحكته، أو بشعره البني. حاول أن تكتف هذه الجزئيات بحيث تصير خصائص عامّة.

على سبيل المثال:

- العذوبة.
- الخجل.
- روح الدعابة.
- لون الشعر.

والآن، ففكر في المرّات التي وجدت نفسك فيها مشدوداً إلى هذه الصفات نفسها، لكن في أشخاص آخرين. أنت تعرف (بعد أن تركت ذلك الشخص) أنك قادر على العثور على تلك الصفات في أماكن أخرى. نستطيع تطبيق هذا الدرس المستخلص من الحب على ميدان العمل: قد يكون لديك تثبيت على ميدان بعينه من ميادين العمل، لكن من الممكن ألا يكون هذا هو الميدان الذي ينبغي أن تسعى إليه، فأنت قادر على البحث عن الرضا نفسه، وعن الإثارة نفسها، في ميادين أخرى.

الخطوة الثانية

1 - سجّل العمل، أو الأعمال، الذي تريده (لكن تحديد ذلك العمل قد يكون صعباً عليك):

- الصحافة، العمارة، السياسة...

2 - ما هي جوانب العمل -تحديداً- التي تتخيّل أنها جذابة؟ تخيّل يوم عمل نموذجياً في تلك المهنة، ثم حدّد أفضل اللحظات.

على سبيل المثال:

- إتمام صفقة.

- السفر إلى هونغ كونغ.

- التجوّل في موقع تصوير الفيلم.

- اجتماعات الفريق.

- زيارة بعض الأماكن.

3 - كثّف هذه النقاط كي تحدّد الخصائص العامة لتلك المسرّات:

- التفاوض.

- السفر.

- أن تكون في مركز الاهتمام.

- حمل المسؤولية.

- تقرير كيف ينبغي أن يكون مظهر المكان.

4 - تخيل الآن - في العمل - أن هذه الأمور الجذابة نفسها قابلة لأن تتحقق. أنشئ لكل فكرة من تلك الأفكار قائمة تضم ثلاثة أماكن أخرى يمكن أن توجد، أو أن تتحقق، فيها.

الخطوة الثالثة

عادة ما نتقدّم إلى وظائف في مؤسسات. ويكون مطلوبًا منا أن نحقق المتطلبات الواردة في التوصيف الوظيفي (أي المتطلبات التي تحدّد المؤهلات والصفات والخبرات الضرورية).

من أجل هذا التمرين فقط، سنعكس الوضع كله: اكتب إعلان العمل المثالي الذي تعتقد بأنه أفضل ما يناسبك، وذلك استنادًا إلى ما سجّلته أعلاه من أمور أساسية تحب أن تستمتع بها في عملك. كيف يمكن أن يكون ذلك العمل الذي يستفيد من مواهبك كلها ويجسد الغاية التي تحسّ بأنها مهمّة بالنسبة إليك؟

هدف هذه المهمة تجميع كل ما تفكّر فيه في شأن ما يعجبك حقًا. فكر في إعلان يصف الشخص المثالي (أي أنت) وما سيقوم به في العمل (مثالك النموذجي)، وذلك بصرف النظر عما إذا كان ذلك النوع من العمل موجودًا أو غير موجود.

على سبيل المثال:

نبحث عن شخص:

- يحب تنظيم الأماكن.

- تستهويه كثيرًا المشاريع واسعة النطاق.

- يحب التفكير في العلاقات وكيف يمكن أن تنجح.

- مستعد لتولي المسؤولية فترة تمتد عشر سنين.

- يحب أن يعمل ضمن فريق ذكي.

كجزء من العمل، سيكون عليك أن:

- تُعدّ تطبيقات سوف يحملها ملايين الناس على أجهزتهم.

- تصمم كيف سيكون مظهر الأشياء.

- تشارك في صفقات شراء شركات أخرى.

تذهب إلى دعوات عشاء ممتعة، وتكون هناك سيارة تذهب

لأخذك من المطار، إلخ.

ج- تشوّش المدخلات/المخرجات

ثمة طريقة شائعة جدًا من أجل تحديد العمل الذي قد نحب

مزاولته، ألا وهي أن نجّمع أفكارنا في شأن القطاعات التي تنتج

ما نستمتع باستهلاكه من أشياء. بما أننا نستمتع بمخرجات تلك

القطاعات، فمن الممكن أن نسعى إلى المشاركة في مدخلاتها

مشاركة مهنية. مكتبة سُر من قرأ

يعني هذا أن من المحتمل كثيرًا أن نُغفل التفكير في

قطاعات كاملة من القطاعات الاقتصادية لأنها ليست على صلة

واضحة بإنتاج ما نستمتع باستهلاكه. إذا كنت شخصًا واحدًا

من أصحاب الإبداع البصري، فمن المحتمل أن أسخر من

فكرة العمل في مصنع إسمنت. وإذا كنت ممن يحبّون الطبيعة،

فمن المرجح أن أصرف النظر عن قطاع الطاقة لأنني لن أعتبره ملائمًا لي. وإذا كنتُ ممن يحبون التعبير عن ذواتهم، فمن المستبعد أن أرى في القطاع المالي ميدانًا أبحث فيه عن عمل أستطيع أن أحبه. ما يحدث هو أننا ميالون كثيرًا إلى الربط بين القطاعات المختلفة وبين مخرجاتها الواضحة؛ وهذا ما يدفعنا إلى أن نستنتج سريعًا أن هناك ميادين بأسرها لا يمكن أن تقدم إلينا إلا القليل مما يعجبنا.

مع هذا، من الممكن أن تكون هناك فائدة عظيمة في التفكير في الأعمال ليس انطلاقًا من مشاعرنا إزاء مخرجاتها، بل من مدى التلاؤم بين اهتماماتنا ومدخلاتها.

قد لا تكون هذه المدخلات كلها واضحة لنا إن اكتفينا بإلقاء نظرة سريعة لأنها مختلفة كثيرًا عن المخرجات التي تحدّد الطبيعة الظاهرية للشركات. فإذا فكرنا في قطاع بعينه، يكون علينا أن نصير أكثر تديقًا في أسئلتنا عما هو ضروري من أجل ما ينتجه ذلك القطاع من سلع وخدمات. ما الأمور التي يفعلها الناس في قطاع من القطاعات حتى يصير ممكنًا، آخر الأمر، أن تظهر لنا مخرجاته النهائية؟ لسنا في حاجة إلى البحث كثيرًا عن الحقائق كي نعرف المزيد، بل علينا فقط أن نستخدم مخيلتنا كي نتوصل إلى تخمينات معقولة في شأن الأمور الكثيرة التي لا بد أن تكون جارية في شركة من الشركات، تلك الأمور التي هي على صلة مباشرة محدودة بالمخرجات النهائية.

قد يبدو قطاع الشحن شديد البعد عن اهتماماتنا إذا نظرنا

إليه من بعيد. ففي آخر المطاف، نحن لا نحب البحر ولا تؤثر في نفوسنا أبدًا رؤية سفن الحاويات الضخمة ترسو في الموانئ. وأما من حيث المدخلات، فإن قطاع الشحن يعتمد على مهارات واهتمامات كثيرة شديدة البعد عن تلك المخرجات التي يراها الجميع. وذلك أنه يتضمن مهامًا من قبيل شحذ حماسة الشركات الدولية لمشاريع بعيدة الأمد وشرح الصفقات الممكنة بطرق واقعية يستطيع المعنيون بالأمر جميعًا قبولها. سوف تكون هناك تحديات كبيرة في ما يتصل باتخاذ قرارات بالغة الأهمية في ظل ظروف غير مضمونة تمامًا. وسوف تكون هناك مفاوضات قانونية وسياسية معقدة جارية من خلف المشهد. وبالضرورة، سيكون ضروريًا تحويل كميات كبيرة من البيانات إلى مخططات بصرية واضحة تبين مسؤوليات كل جهة من الجهات. ولا بد أيضًا من التعاقد مع من يصنعون الإعلانات، ومن تقييم تلك الإعلانات. ينبغي أيضًا تنظيم مؤتمرات وتوفير ما يلزمها. ستكون هناك مستلزمات كثيرة من أجل الاتصالات الداخلية. بكلمات أخرى، هناك مجالات عمل كثيرة ليست على ارتباط أصيل بمهمة إرسال شحنات بحرية عبر قناة السويس. من هنا، لا تعود حقيقة أن المرء ليس لديه اهتمام خاص بالشحن - أي بالمخرجات - دالة على أن هذا القطاع مكان لا يصح التفكير فيه للعثور على عمل مناسب.

أو... فلنتخيل شخصًا يسقط من حسابه، تلقائيًا، أي احتمال

لأن يعمل في الصحافة لأنه يفترض (انطلاقاً من نظرة عابرة سريعة) أن تركيز أي عمل في هذا الميدان ينبغي أن يكون منصباً، من حيث الأساس، على الكتابة وعلى تحليل الحوادث الجارية. وأما إذا تأملنا في الأمر، فسوف نبدأ ملاحظة أنه لا بد من وجود جملة واسعة جداً من المدخلات المختلفة التي ترافق المخرجات التي يراها الجميع. لا بد للشركات الإعلامية من أن تهتم كثيراً بضبط النفقات؛ كما أن لديها أيضاً حاجة كبيرة إلى تنظيم مواردها تنظيمًا متقنًا. ثم إن معرفة احتياجات المستهلكين واهتماماتهم عامل جوهري في نجاح أي مشروع إعلامي. ولا بد أن يكون وضع نماذج أعمال جديدة أمرًا بالغ الأهمية أيضًا. من هنا، وحتى إذا لم يكن لدى المرء اهتمام شخصي بإنتاج قصص عما يجري من حوادث، فسوف يظل قطاع الصحافة عامرًا بفرص كثيرة من أجل تحقيق المسرات التي يهتم بها المرء كثيرًا، وذلك من قبيل تنظيم عمل الآخرين، وتبسيط العمليات المعقدة، وإدارة الوقت، والتعليم، والتعلم. لا تقفز هذه الأمور إلى الذهن مباشرة لأنها ليست جزءاً من الصورة التي نعرفها عن مخرجات ذلك القطاع؛ إلا أن أهميتها الكبيرة تظهر لنا - عند النظر بقدر أكبر من التمعن - في مجموعة المدخلات التي لا بد منها للوصول إلى تلك المخرجات التي يراها الجميع.

ما يصح على قطاع الشحن، أو على الصحافة، يصح على قطاعات كثيرة غيرهما. ففي أكثر الأحيان، يتضح لنا أن المدخلات مختلفة اختلافاً كبيراً عن الأمور التي ترتبط في ذهننا بقطاع من القطاعات. فبدلاً من التساؤل عما إذا كانت

المخرجات تبدو لنا من جملة الأشياء التي نستمتع بها، علينا أن نتساءل ما إذا كانت مسرّاتنا يمكن أن تكون جزءاً من مدخلات القطاع المعني. هذه مهمة صغيرة، لكنها تفيدنا كثيراً إذ جعلنا قادرين على توسعة فكرتنا عن الأماكن التي قد نعثر فيها على أفضل الفرص لعملنا.

تمرين

حتى نفكر في ما يجري خلف الكواليس في أنواع مختلفة من الأعمال ونعرف طبيعة المسرّات التي يوفرها فعلاً، من المفيد لنا أن ننظر إلى المدخلات وإلى المخرجات في عدد كبير من الأعمال المتنوعة.

الخطوة الأولى

من غير أن تفكر في الأمر كثيراً، سجّل بعض الأعمال، أو القطاعات، أو الصناعات التي تجد بحسبك أنها:

- أ- جذابة بعض الشيء.
- ب- غير مغرية.
- ج- غير ذلك - ميادين لم يسبق لك أن فكرت فيها-.

الخطوة الثانية

مقابل كل نوع من أنواع أعمال:

- صف المخرجات: ما هي المنتجات والخدمات الرئيسية.
- فكر بعد ذلك في هذه الأعمال من حيث مدخلاتها. حاول أن تتخيل بأقصى قدر من التفصيل أنواع العمل التي لا بد أن تكون جارية في خلفية المشهد كي يتم توفير هذه المنتجات والخدمات.
- لاحظ مقدار الاختلاف بين المدخلات والمخرجات التي وصفتها.

الخطوة الثالثة

استخدم قائمة مسرّاتك (القائمة التي أنشأتها في تمرين سابق)، وقارنها بما كتبتّه الآن في وصف المدخلات. أين تستطيع أن تجد مكانًا لمسراتك؟

الخطوة الرابعة

بعد أن فكّرت في هذا الأمر، عد إلى ما سجلته في الخطوة الأولى في هذا التمرين (الأعمال الجذابة، وغير الجذابة، والتي لا تعرف عنها شيئًا) هل لاحظت تغييرًا في موقفك؟

تمرين: عمل غير متوقّع، لكنه مثير

الخطوة الأولى

اكتب قائمة بخمسة أعمال تحب أن تؤديها. ثم اكتب قائمة بخمسة عشر عملاً تحب أن تؤديها، بما في ذلك الأعمال التي تحلم بها، وأعمال تتخيل أنها يمكن أن تكون جيدة أو أن تثير اهتمامك. ليس مهمًا أبدًا أن تكون الآن حريصًا في ما يخص الجوانب العملية.

الخطوة الثانية

انظر إلى القائمة الطويلة الأكثر خيالًا، قائمة الأعمال الخمسة عشر. ما الذي يجذبك في هذه الأعمال؟ قد لا تكون أعمالًا يمكن أن تمارسها -فعلًا- لعلك كتبت: أمين مكتبة، أو مقدّم برنامج كوميدي، أو مضيف برنامج ألعاب تلفزيوني، أو شخص يعمل في الكروم، أو نادل، أو موظف في الأمم المتحدة. لكن الحقيقة أن هذه الأعمال كلها لم تتبادر إلى ذهنك إلا لأن في كل منها أمرًا يثير اهتمامك. ابحث عن ذلك الجزء من نفسك الذي يتجاوب مع «العمل الغريب،

غير المؤلف، لكنه يثيرك ويجذبك». أنت هنا لا تحاول فهم شيء متّصل بأعمال حقيقية، بل فهم اهتماماتك أنت، فمن الممكن أن تظهر لك الجوانب التي تثير اهتمامك فعلاً في أماكن أكثر تقليدية (وذلك بعد أن تصير قادرًا على رؤيتها جيدًا).

د- كيف يكون العمل؟

بعد أن نكتشف نقاط مسرتنا ونصير واثقين منها، فنكوّن فكرة عما ما قد يشتمل عليه العمل الذي نراه مثاليًا بالنسبة إلينا، تظهر مشكلة تكتنف كل ما نعرفه عن الأعمال المختلفة. ففي أحيان كثيرة، لا نعرف ما فيه الكفاية عن مسارات عمل بعينها، أو قطاعات أعمال بعينها، يعجبنا أن نكون على صلة بها.

بطبيعة الحال، يكفي قدر قليل من البحث حتى نعرف الكثير مما نريد معرفته: شروط الراتب التقاعدي وما يقدمه المطعم في مكان العمل، وبأية أسعار، وما إذا كانت هناك أسفار مرتبطة بالعمل، وكيف يعمل نظام تقييم الأداء، وهل يذهب الناس لتناول شراب بعد انتهاء العمل، وما هي آفاق الترقّيات، وكم يبلغ متوسط الأجور في هذا القطاع، وما هي الشركات التي تشهد نموًا. يفيدنا كثيرًا أن نعرف هذا كله. لكنه لا يمَسّ تمامًا ذلك النوع من الأسئلة التي تجعلنا «نقاط المسرة» نفكر فيها. فهو لا يستطلع أسئلة بالغة الأهمية (لكنها لا تُطرح إلا في ما ندر)، أسئلة من قبيل: كيف يكون القيام بهذا العمل من الناحية الفعلية؟ أو كيف يكون اتخاذ المرء هذا المسار المهني؟

ما نريد استبيانه وفهمه هو كيف يكون إحساس المرء عندما يعمل نجارًا (على سبيل المثال)، أو وزيرًا في الحكومة، أو

طيارًا في شركة نقل جوي جديدة، أو محاميًا لدى شركة تصميم الأزياء؟ حتى الآن، بحثنا في الأمور التي نجدها ممتعة لنا، لكن هذا لا يعطينا - في حد ذاته - دلالة واضحة في شأن أي توجّه بعينه من حيث العمل.

ما نستطيع فعله هو أن ننظر إلى العمل الذي قد نكون مهتمين بممارسته، فنحلله من حيث ما يمكن أن يوفره لنا من المسرّات التي توصلنا إلى أنها مهمة بالنسبة إلينا. السؤال هو: كيف ستحقّق هذه التوجّهات المهنية ما نتطلّع إليه من مسرّات؟

تمرين: مقابلة مُتخيّلة

من الممكن أن نكون قد قرأنا شيئًا عما يمكن أن يكونه العمل المعني، وذلك من خلال توصيفه الوظيفي ومن خلال منشورات في الإنترنت، وكذلك من خلال التحدّث إلى أشخاص آخرين. لكن ما يحدث أكثر الأحيان هو أن تفكيرنا لا يكون متركّزًا على النقاط الصحيحة التي ينبغي أن نفهمها: فنحن لا نتمعّن في الخلفية المعرفية الموجودة لدينا كي نتوصّل إلى تخمينات متبصّرة عما قد يكونه العمل المعني مع أن تلك التخمينات تعيننا في اتخاذ قراراتنا.

الخطوة الأولى

فكّر في عمل يثير اهتمامك. إذا كان ممكّنًا أن تتلقّى إجابات صادقة تمامًا، فما هي الأسئلة التي يمكن أن تطرحها على شخص يعمل الآن في المكان نفسه كي تكوّن فكرة واضحة عن تجربة العمل الحقيقية؟

- قد تشتمل قائمة الأسئلة على بعض مما يلي:
- كيف يكون إحساسك في بداية أسبوع العمل؟
 - ما هي المخاوف الأكثر شيوعًا التي تتبادر إلى ذهنك؟
 - ما هي اللحظات التي تحس فيها بنفسك راضيًا؟
 - ما الذي يزعجك في زملائك؟
 - ما طبيعة الأحاديث التي تجري في العمل؟
 - ما الذي يثير إعجابك في العمل؟
 - حدثني عن الأمور التي تثير إعجابك؟
 - هل تغيرت تجربتك في هذا العمل كثيرًا مع مرور الزمن؟ كيف كان تغيرها؟ هل ساءت أم تحسّنت؟
 - عندما تكون بعيدًا عن العمل (لنقل إنك في عطلة)، فهل تفكر فيه؟ ما الذي يدور في ذهنك عند ذلك؟
 - هل ترى أنك منسجم جيدًا مع عملك؟ ومن أية نواحٍ (الإيجابيات والسلبيات)؟
 - صف لي واحدًا من نجاحات العمل... صفه بالتفصيل.

الخطوة الثانية

قد لا يتاح لك أبدًا أن تطرح هذه الأسئلة على واحد ممن يعملون هناك فعلاً. لكنك تستطيع أن تتخيل نفسك (استنادًا إلى ما تعرفه عن العمل) واحدًا ممن يعملون هناك وأن تقدّم إجابة تفصيلية عن كل سؤال من الأسئلة التي طرحتها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عقبات ومثبّطات

أ - نماذج العمل العائلية

حتى عندما نصل آخر الأمر إلى فهم موثوق لطبيعة مسار العمل المهني الأمثل بالنسبة إلينا، فليس معنى هذا بالضرورة أننا تجاوزنا الصعوبات كلها: من المحتمل أن نضطرّ إلى تلمّس طريقنا من حول مجموعة متنوّعة من العقبات النفسية التي يمكن أن تثبط عزمنا تثبيطاً شديداً وتحوّل بيننا وبين التقدّم صوب الأهداف التي حدّدناها لأنفسنا.

ومن بين تلك العقبات عقبة كؤود يمكن تتبّع أصولها رجوعاً إلى عائلاتنا. فخلال الشطر الأكبر من تاريخ البشر، كان «القدر المهني» لكل جيل جديد يحدّد تلقائياً من جانب الجيل الذي سبقه. يصير المرء فلاحاً أو جندياً مثلما كان والده، أو تصير المرأة خياطة أو معلمة مثل أمها. لقد كانت الخيارات مقيدة تقييداً شديداً، وكانت العقوبات التي تنزل بمن ينحرف عن المسار المقرر له شديدة. ففي الدولة البروسية في القرن الثامن عشر، كانت القوانين تمنع أبناء النبلاء من ممارسة الأعمال أو امتهان الحرف. وفي إنكلترا القرن التاسع عشر، كان ممكناً أن يقدم والدٌ محترم على حبس ابنته في مكان منعزل إذا أصرت

على أنها راغبة في أن تصير مغنية أو ممثلة. وكان من غير المقبول عقلاً أن يعمل ابن المحامي خزافاً أو نجاراً. بعد ذلك، في أوائل القرن العشرين، بدأت المجتمعات تحرر أنفسها تدريجياً من تلك القيود الطبقية والأبوية، وذلك بتأثير إيديولوجيا «الرومانسية». وفي مجالين مركزيين اثنين - الحب والعمل - تنازل الآباء والأمهات عن سلطتهم لصالح أبنائهم وبناتهم، فصار القرار في يد كل ابن وكل ابنة. صرنا أحراراً في أن نتزوج من نريد وأن نعمل في أية مهنة تعجبنا. إلا أن هذه الحريات النظرية كان لها أثر غريب متمثل في أنها صارت تخفي عنا ذلك المقدار الكبير من التعبيرات العائلية الذي ظل محتفظاً بتأثير، وظل يفرض قيوداً على مساراتنا المهنية. صحيح أن آباءنا وأمهاتنا لم يعد لديهم سلطة قانونية يستطيعون استخدامها لإغلاق حساباتنا المصرفية أو لتقييدنا أو حبسنا، لكنهم ظلوا متمتعين بقدر من السلطة علينا من خلال أداة مهمة هي «التحكم النفسي»: التهديد بأن يغضبوا منا ويحرمونا من عطفهم إذا خيبتنا آمالهم فينا؛ فالحب قادر على التحكم بنا مثله مثل القوة أو القانون.

في دخيلة تفكيرنا، ثمة دائماً ما يمكن أن نسميه «نماذج العمل العائلية» التي تظل فعالة وتحد من الأعمال التي نحس بأننا قادرين على تكريس أنفسنا لها، في حين تشجع توجهنا إلى مجموعة أخرى من الخيارات «المفضلة». يعني هذا أن «خلفياتنا الذهنية» تُقرب منا أعمالاً بعينها وتُبعد أعمالاً أخرى.

في أقل الأحوال سوءاً، تكون «نماذج العمل العائلية» ناجمة عمّا لدى العائلة من فهم لعالم العمل. فلكل عائلة مجموعة من المهن التي تفهمها جيداً لأن واحداً من أفرادها قد مارسها، فصار الآخرون على ألفة بها جعلتها تدخل إطار ما يستطيع بقية أفراد العائلة قبوله. ففي ماضي عائلة من العائلات - حتى لو لم يكن الجميع قادرًا على تذكر ذلك - كان هناك أطباء في يوم من الأيام. منذ سن مبكرة، يسمع المرء قصصًا عن المرضى تكاد تكون كوميدية، وعن وصولهم إلى المستشفى، وعن غرابة سلوك كبار الأطباء، وعمّا كان في الدراسة في كلية الطب من متعة ومعاناة. من هنا، يصير طبيعيًا، وممكنًا أيضًا، إحساس المرء بأنه قد يقرر (عندما يحين الوقت) أن ينضم إلى صفوف المؤسسة الطبية. وفي عائلات أخرى، نجد أجيالاً من المحامين، أو من المحاسبين، أو البحّارة، أو العاملين في الفنادق، أو الحدادين، أو القصابين. ومن الممكن أن يحمل الطفل في ذاكرته قصصًا كثيرة راسخة تؤكد على سحر قاعات المحاكم، أو على الطبيعة المتميزة لإنقاذ أرواح الناس. وقد تكون في مواضيع تلك القصص أفكار عن منافع التعليم، أو عن التميز الكبير في إدارة المطابخ، أو عما في إبرام صفقة ناجحة من إثارة، أو عن شرف حفظ الأمن في شوارع المدينة. ففي الأجواء البيئية المريحة، يكون المرء معرضًا لتأثير أفراد العائلة (حيث تصير المسافة بين صاحب المهنة والشخص قليلة جدًا، وحيث تبدو الأقدار الساحرة ممكنة جدًا)، فيصير

من الطبيعي أن ينتهي الأمر بمهن بعينها إلى أن تبدو في عين الطفل «واقعية» أكثر من غيرها من المهن. لن تبدو مهنة خال كان يعمل مراقب حركة جوية أمرًا بعيدًا عن المتناول، عندما نتذكر أن ذلك الذي كان يمارسها كان أيضًا يعتني بالحديقة، وكان يستمتع بالنكات معنا.

نادرًا ما يُعتبر الابتعاد عن «خبرة العائلة» أمرًا خاطئًا تمامًا، أو غيبًا، أو شرييرًا؛ لكننا قد لا نستطيع تخيل أنه ممكن لنا. لا نعرف أين نبدأ عندما لا يكون في العائلة كلها من ذهب في ذلك الاتجاه، في اتجاه الرياضة أو الإلكترونيات أو المسرح. ولا يستطيع الناس الذين نعتمد على محبتهم أن يمدوا إلينا يد العون كي نصير واثقين من أنفسنا في تلك الميادين. إنهم يقدوننا لأنهم لا يريدون لنا الخير، ولا لأنهم درسوا جوانب شخصيتنا كلها ثم رفضوا قبول ميولنا الحقيقية، بل ببساطة لأن تجاربهم وخبراتهم ضيقة بالضرورة، ولأنها محدودة.

فضلاً عن هذا، فإن ثمة آليات «مُحمّلة بقيم» تلعب دورها بعض الأحيان. فنموذج العمل العائلي يظهر بصفته نتيجة لما كان الأهل يقدرونه ويصبون إليه. وأيضًا، يظهر فيه ما كانوا يخشونه ويفضلون الابتعاد عنه. ففي عائلات كثيرة، نجد خيارات مهنية بعينها يتكلم عليها الأهل بقدر واضح من التوقير: كأن يكون المرء كاتبًا شهيرًا أو قاضيًا كبيرًا أو مدير مدرسة أو موظفًا في الحكومة. يحدث كثيرًا ألا يكون الأهل ممن يعملون في تلك المهن؛ فكل ما في الأمر هو أنهم تمنّوا ذات يوم أن يعملوا فيها (لكن ذلك لم يحدث أبدًا).

ومن الأهالي من ينقلون -في صمت- أحلامهم إلى أطفالهم متمنين تحقيقها. وعادة ما يكون ذلك من غير أن يقولوا لهم إنهم يلقون بهذا العبء على كواهلهم. إلا أنهم ينقلون إليهم بالفعل رسالة مفادها أن أتباع توجّه بعينه سيكون السبيل الأفضل لضمان إعجابهم وحبهم. ستكون الابنة (أو الابن) المعمارية التي لم يجرؤ والداها على أن يكوناها، أو رائدة الأعمال التي حيل بينهم وبين تجسيدها لحياتهما. لا يقال شيء من هذا صراحة، لكن تلك التطلّعات تظل، رغم ذلك، موجودة في جو العائلة النفسي. لا يبدو في الأمر أي قدر من القسر، لكن مما يثير الانتباه حقًا كم يمكن أن نتأثر بخمسة عشر عامًا من نظرات الإعجاب إزاء توجّهات مهنية بعينها ومن نظرات الازدراء إزاء توجّهات مهنية أخرى.

من الممكن لأي منا أن يتلقّى رسائل صغيرة مفادها أن ثمة مسارات مهنية «أقل» منا، أي إنها لا تلائم مكانتنا في الحياة. لا يضع الآباء والأمهات العصريون حواجز مطلقة. فهم لن يمتنعوا عن الكلام معنا إذا احترفنا إدارة الممتلكات أو صرنا مهندسي صوت. لكن من الممكن أن يخلقوا جوًّا ذهنيًّا طاغيًّا يجعل سلبيات نوع بعينه من أنواع العمل ملحوظة بوضوح خاص. إن الآباء والأمهات قادرين على أن يوصلوا إلينا -خفية- ما لديهم من نظرات تنتقص من شأن بعض المهن التي تلقى قبولًا تامًّا في المجتمع الواسع. ومن الممكن أن يشيعوا لدينا إحساسًا مفاده أن ما من شخص ذي عقل يمكن أن يرغب في العمل

طبيب أسنان، أو أن مهنة المحاسبة صالحة للخجولين فقط. وقد يوحون إلينا بأن العمل في التعليم مضيعة للحياة، أو أن الأشخاص غير المستقيمين هم وحدهم من يمكن أن يفكروا في العمل في ميدان الإعلان. ومن الممكن أيضًا أن ينقلوا إلينا نظرة إلى المعمارين تقول إن المعمارين مختلون قليلًا، أو أن كل ما له علاقة بعلم النفس منتم إلى عالم الشعوذة والأعيب. نحن قادرون على الإحساس برغبات أهلنا وبما يثير حماسهم، ونحن متأثرون بهم. وبما أننا نحبهم، فسوف نحاول أن نجعل أنفسنا منسجمين معهم. هذا أمر طبيعي جدًا، لكنه قد يكون بعيدًا كل البعد عن نوع العمل الذي يمكن حقًا أن يمنحنا إحساسًا بالإشباع والرضا.

في كتابها «ميدلمارش» الذي نُشر أول مرة في 1871-1872، تحكي لنا جورج إليوت قصة فريد فينسي الذي كان ابن صناعي محلي ناجح. كان والده، اللذان يحبهما، على اعتقاد راسخ بأن عليه أن يصير قسًا - لا لأنه ملائم لهذا العمل بأي شكل من الأشكال، بل لأن والده يحترم هذا العمل احترامًا شديدًا، ولأنه كان يتمنى أن يصير قسًا - في نهاية الأمر، صار فريد مساحًا، وكان شديد السعادة بعمله. إلا أن جورج إليوت تبين لنا على امتداد صفحات كثيرة ضخامة المعاناة الذهنية التي شكلتها هذه النقلة بالنسبة إلى فريد. نرى في تلك الصفحات كم كان مؤلمًا له إدراكه أنه يخذل والديه، وكيف أدى هذا إلى جفاء بينه وبين شقيقته التي اعتبرت مهنته مصدر حرج بالنسبة إليها، وكم كان يحس أن أصدقاءه أيام المدرسة صاروا يعتبرونه فاشلاً!

تحكي لنا جورج إيليويت قصة شخص كاد يفشل في تحرير نفسه من «النموذج الأبوي» لأن لديها إدراكًا واضحًا لحقيقة أن كثيرين منا لا ينجحون أبدًا في إنجاز ذلك القطع الذي أنجزه فريد. لا ينبغي أن يكون هذا مفاجئًا لنا في شيء: عند اختيارنا بين الحب وإحساسنا بالرضا، يكون أمرًا قابلاً للفهم إن آثرنا - أكثر الأحيان - «إغلاق آفاقنا» كي نحافظ على علاقتنا بأولئك الذين أتوا بنا إلى هذا العالم.

ما يميز المجتمعات الحديثة عن سابقتها هو أن الرسائل المعبّرة عما هو موضع إعجاب، أو عما هو صحيح أو حكيم، «تُبتّ» من غير ضجيج. فمن الممكن أن يكلم والدا فريد فينسي ابنهما عن خياراته المهنية بطريقة مباشرة وأن يقسرانه قسرًا ملموسًا. لكن الآباء والأمهات الذين يتصرفون الآن بهذه الطريقة صاروا قلائل. إلا أن هذا يظل مختلفًا عن منح الابن، أو الابنة، حرية حقيقية في فعل ما يراه صائبًا. ولما كانت «الصيغة العائلية» خفيّة، فمن الممكن جدًا ألا تكون شدة تأثيرها علينا واضحة لنا. حتى نحرر أنفسنا، علينا أن نجعل أنفسنا نفكر تفكيرًا حقيقيًا نشطًا في شبكة «التوقعات العائلية» التي يُحتمل أن نجد أنفسنا عالقين فيها.

علينا أن نسأل أنفسنا عما هو واقع ضمن إطار خبرات العمل العائلية وعما هو واقع خارج هذا الإطار، وأن نفكر في ما إذا كانت هناك خيارات منطقية يجري «حذفها» لأسباب اعتبارية أو انطلاقًا من نظرة متعالية. وعلينا أن نسأل أنفسنا

عن الأحلام التي كانت عند أهلنا لكنهم لم يستطيعوا تحقيقها لأنفسهم، وعمّا إذا كان لهذا الأمر أن يُثقل على كواهلنا بطريقة غير منسجمة مع ذواتنا العميقة. علينا أن نتساءل كيف يصنف أهلنا المهنة في سرهم. حتى إذا قالوا لنا صراحة إن المهنة كلها -بالطبع- يمكن أن تكون جيدة («لا نريد لك إلا أن تكون سعيداً!!»)، فإن علينا أن نلتقط الأسلوب الذي يوحون لنا به بأن أعمالاً بعينها أكثر قيمة من أعمال أخرى.

بعد ذلك، ومن خلال البحث الصبور، سنبدأ رؤية التأثيرات التي لعلها لا تزال باقية ولا تزال تستبعد بعض الخيارات المهمة، بل ربما لا تزال تمنعنا من التوجّه الحقيقي صوب مسار مهني نعتقد في قرارة قلوبنا أنه مناسب لنا فعلاً.

تمرين: المؤلف وغير المؤلف

الخطوة الأولى

ضع قائمة بالأعمال، أو بأنواع الأعمال، التي كانت مألوفة بالنسبة إليك لأنها أعمال يمارسها بعض أفراد العائلة أو بعض الأشخاص ممن تعرفهم معرفة جيدة. ما هي الأعمال التي تبدو «خيارات واضحة» -أي أعمالاً من النوع الذي يكون اتجاه شخص من عائلتك إليه أمراً طبيعياً.

الخطوة الثانية

فكر الآن في أنواع الأعمال التي كانت خارج النطاق المشترك لتجارب عائلتك في الميدان المهني (لعلك لم تُمض حتى الآن وقتاً مع شخص يعمل محاسباً، أو طبيباً، أو مذياعاً تلفزيونياً، أو معلم رياضيات، أو

اختصاصي علاقات عامة، أو مع شخص يعمل لدى شركة صيدلانية كبيرة). سجّل بعض الأعمال التي تبدو أنها خارج المعيار العائلي تمامًا، لكن من الممكن أن تبدو لك جذابة إلى حد مفاجئ.

تمرين: الجيد والسيئ

الخطوة الأولى

تشتمل «صيغة العمل العائلية» الموروثة على أفكار عما يجعل عملاً من الأعمال جيداً أو سيئاً، وعما يجعله موضع إعجاب أو موضع شك. إن لدى العائلات أنظمة قيم حتى إذا لم تكن تعبر عنها تعبيراً صريحاً. ومن المفيد أن تفكر ملياً في «نظام القيم» الذي يمكن أن يكون عندك في ما يتصل بالعمل. هل كان لديك يوماً انطباع بأن والدك ووالدتك ينظران إلى بعض أنواع العمل نظرة سلبية (قد لا يقرآن بهذا الأمر)؟ فمثلاً، قد تكون نظرتهما إلى المحامين، أو إلى معلمي المدارس غير إيجابية على الإطلاق، ومن الممكن أن يكونا قد أوحيا إليك ضمناً -حتى إذا لم يقولا هذا صراحة- بأن أي شكل من أشكال العمل اليدوي «صالح لغيرنا فقط»، أو بأن أي شخص لا يقوم بعمل إبداعي ينبغي أن يكون موضع شفقة. ضع قائمة تقريبية ببعض الأعمال التي ترى/أو والديك يعتبرانها «سيئة». ما الذي يعتقدان فعلاً بأنه سيئ في هذه الأعمال؟ وما رأيك أنت في الأمر؟ هل يستهويك أي عمل من تلك الأعمال «السيئة»، أو هل يمكن أن يستهويك إذا استطعت أن تضع الآراء التي سمعتها جانباً؟

الخطوة الثانية

ضع قائمة أخرى بالأعمال التي ينظر إليها أفراد عائلتك نظرة

إيجابية. ما الذي يعتقدون بأنه حسن، أو صحيح، في هذه الأعمال؟ وما هي نظرتك الحقيقية إلى هذه التوجّهات في العمل؟ ما الذي قد لا يكون، في واقع الأمر، مرضيًا لك كثيرًا أو شديد الجاذبية بالنسبة إليك في هذه الأعمال؟

تمرين: القصص

الخطوة الأولى

عد بذاكرتك إلى أسلوب والديك في الحديث عما لقياه من صعوبات ونجاحات في عملهما -من الممكن أن تكون قد سمعت تلك الأحاديث على شكل قصص وقت العشاء أو من خلال ما كان والداك يقولانه بعد عودتهما إلى البيت مرهقين بعض الأيام. ضع قائمة بكل ما تتذكّره من قصصهما وأفكارهما في ما يخص العمل سواء أكان عملهما نفسه أم أية أنواع أخرى من العمل، أو حتى قصصًا عن العمل بشكل عام. على سبيل المثال:

- يريد الزبائن دائمًا أرخص الأشياء؛ وهم لا يدركون «الرؤية» التي في منتجات أخرى.
- الشركات الكبيرة تفسد الأمور.
- الشركات الكبيرة تلتهم الشركات الصغيرة دائمًا.
- التعليم طريق مسدودة.
- عليك أن تضع خطة حياتك كلّها حتى قبل أن تحصل على أول عمل.
- لا يعرف أحد ما ينبغي عليه فعله. ونحن جميعًا لا نفعل شيئًا غير أن نخاطر ونأمل بأن يكون حظنا حسنًا.

- ثمة أشخاص كثيرون لا يدفعون ثمن حقيقة أنهم لا يحسنون
أبدًا فعل ما يقومون به.
- الاستحقاق مفتاح كل نجاح.
- غالبًا ما يكون الزملاء كسالي، أنانيين، أغبياء.
- رائع أن يعمل المرء مع أشخاص أفضل منه قليلًا في هذا الأمر
أو ذاك... فهكذا نتعلم.
- لا معنى لفعل أي شيء إلا إذا بلغت القمة.
- على الدوام، لا يهتم المديرون إلا بأنفسهم، ولا شيء غير ذلك.

الخطوة الثانية

إذا طُلب من محقق خاص أن يتحرّى وضعك والدروب التي
سلكتها أو التي حلمت بها، فهل يستطيع أن يعثر على أدلة
على مدى تأثير هذه الآراء والفرضيات التي في خلفية ذهنك
على حياتك؟ هل هناك عناصر بعينها كانت لك ردة فعل في
مواجهتها؟ وهل هناك آراء ووجهات نظر تبنيها فصارَت أجزاء
مهمة من نظرتك إلى العالم؟ أية عناصر ضمن نظرتك الخاصة
كانت آتية مما قمت به من استكشاف وتفكير، وأية عناصر
انتقلت إليك من البيئة المتخيلة التي أوجدتها عائلتك؟

ب- «إصلاح نواقص الوالدين»

إن من أهم المؤشرات (مع أنه أكثرها خفاء بالضرورة) على
أننا سائرون في الاتجاه الصحيح في ما يخص العمل ذلك
الإحساس بأن أداءنا أفضل من أداء والدينا. ليس المقصود بهذا
أي نوع من عقوق الوالدين أو التعالي عليهما، بل هو علامة
صحيّة على أننا اهتدينا إلى مهنة نحسها ذات معنى، إلى مهنة
تنشطنا وتقويننا.

لكن علينا هنا أن نركز قليلاً على المعنى الحقيقي لـ «الأداء الأفضل». تقليدياً، يترجم هذا المعنى بالمال. يُعتبر أن جيلاً من الأجيال قد صار «أفضل أداءً» من الذي قبله عندما يستطيع أن يعيش في بيوت أكبر وأن ينفق أكثر على العطلات.

إلا أن ثمة أسلوباً أكثر رهافة وإثارة للاهتمام في تفسير فكرة «الأداء الأفضل». فمن الممكن تطبيقه على الحالات التي نتمكن فيها من تصحيح بعض ما كان لدى والدينا من إخفاقات نفسية أو «نقاط عمياء» أو إفراطات، وذلك من خلال عملنا. فمن المحتمل كثيراً جداً أن نستطيع دائماً العثور على شيء مفقود في تجربة الحياة التي عاشها أولئك الذين أنجبونا ورببونا. من الممكن أن يكون الأب شخصاً لم يستمتع بحياته. ومن الممكن أن يكون عدم الاستقرار المالي في طفولته قد ترك آثاره في نفسه فجعل الاعتبارات المالية العنصر الأول في حكمه على أي عمل. ولعل الأم كانت شديدة الاندفاع في بحثها عن المغامرة - ردة فعل على نشأتها التي كان فيها الكثير مما يجعلها تحس نفسها مخنوقة -. كانت تحب الفنانين الذين لم يفلحوا بعد في شق طريقهم، وتحب صانعي الأفلام الجذريين الذين لن يصلوا إلى النجاح. كانت لامعة في محاكاة ما يفعله شقيقها التقليدي الذي كان محور نكات عائلية كثيرة.

كثيراً ما يحدث أن يكون اختيار المسار المهني - في جانب منه - مدفوعاً على نحو غير واع تماماً بالرغبة في إصلاح أو شفاء بعض النواحي في «نفسية» الأبوين. فعلى سبيل المثال،

يمكن أن تكون تلك محاولة من المرء لإظهار أن من الممكن الاهتمام بالاستقرار المالي إلى جانب وجود مسار مهني ذي معنى بالنسبة إلى الإنسان، أو أن في وسع المرء أن يكون شخصًا ذا روح، وأن يكون مهتمًا بالنجاح المادي. قد يرغب المرء في إظهار أن من الممكن أن يكون ذا أداء جيد من الناحية المالية وأن يظل، في الوقت نفسه، قريبًا من أطفاله، أو أن يكون شخصًا فطنًا مهتمًا بالعلم. فنحن مدفوعون دائمًا إلى محاولة تجاوز بعض «الحدود» التي عاشها أهلنا.

من الممكن أن يكون اختيار مسارنا المهني النهائي أشبه بمحاولة للتعويض عن بعض الإخفاقات والأخطاء في حياة أبويننا (من غير الكف عن الإيمان بما كان مهمًا في نظرهم). فقد نكون مدفوعين بفعل «مشروع تصحيح وشفاء» عابر للأجيال. إننا ميّالون إلى أن نحب الاعتقاد بأننا قادرون على فهم واستبيان كل شيء خلال فترة حياتنا. لكن من الممكن حقًا أن يتطلب الأمر نوعًا من الجمع بين خبرات جيلين أو ثلاثة أجيال قبل التوصل إلى نظرة للعمل تكون حكيمة وفعالة (وتحقق الرضا أيضًا). فما من شك في أن قسمًا مما لم نستطع إنجازه سوف يبقى كي يتولاه أبنائنا وبناتنا.

من هنا، يمكن طرح سؤال مهم: كيف يمكن أن نصير راغبين في تجاوز أهلنا من الناحية النفسية من خلال عملنا (على مستوى النضج والسعادة)؟ فما هو معنى أن «نصحح» ما كان لدى الجيل السابق من أخطاء في التفكير وفي المشاعر؟

كيف نستطيع أن نساعد الوالدين حتى إذا كانا متوقفين أو إذا لم يكن لديهما أي اهتمام خاص بهذه المساعدة من جانبنا؛ وذلك أن اللاشعور ليس له أثر كبير بالنسبة إلى هذه التفاصيل؟ إن هذه الأسئلة قادرة على مساعدتنا في التركيز على ما نحتاج إليه من أجل تطورنا.

إن رغبتنا في تجاوز والدينا رغبة بناء مفيدة - من غير أن نسيء إليهما، بل من خلال تصحيح بعض المواقف الخاطئة التي كانت سبباً في معاناتهما-. ربما كان والدانا (من غير ذنب منهما) ضعيفين من الناحية الاستراتيجية، أو ربما كانا محدودين أو ساذجين، أو لديهما قلة ثقة مفرطة بهذا العالم. لقد عاشا مشكلاتهما، لكننا غير مضطرين إلى عيشها. نستطيع أن نستوعب إخفاقاتهما وأن نتعلم منها. ففي اختيارنا مسارنا المهني، علينا أن نخصّص وقتاً كي نسأل أنفسنا منذ البداية عما تعنيه كلمة «أداء أفضل» بالنسبة إلينا، لا بالنسبة إلى أهلنا.

تمرين

من النواحي المهمة - وإن تكن أقل وضوحاً- التي يمكن أن تجعل عملاً من الأعمال مناسباً لنا مقدار ما يتيح لنا ذلك العمل من قدرة على «تحسين» تجربة أبويننا. ها هي تجربة من أجل تحديد ما قد يعنيه ذلك بالنسبة إليك.

الخطوة الأولى

عد في ذهنك إلى الأمور التي كانت تضايق والديك أو تحبطهما في عملهما. ماذا كانا يقولان أنه غير متوفّر في مسارهما

المهني؟ وبحسب رأيك، ما هي جوانب القصور أو الإفراط في حياة العمل التي عاشها؟
هل كانت حياة العمل التي عاشها:
- غير مثيرة أبدأ.

- فيها قدر زائد من المخاطر.
- مرهقة أو مثبطة للروح المعنوية.
- مفتقرة إلى الطموح.
- فيها تركيز زائد على إرضاء الآخرين.
- مفرطة التقيد بأهداف شديدة الصعوبة؟

الخطوة الثانية

عند كل مشكلة من المشكلات في حياة والديك، اسأل نفسك عن نوع العمل الذي يتعين عليك القيام به كي لا تظهر تلك المشكلة في حياتك أنت. قد لا يكون ذلك العمل عملاً «أفضل» (وفق المعايير المألوفة) من العمل الذي زاوله والداك. فمثلاً، يمكن ألا يكون دخله أفضل، ويمكن ألا تكون منزلته الاجتماعية أفضل. فلماذا يبدو هذا العمل بالنسبة إليك تحسناً بالقياس إلى تجربة والديك في العمل؟

جـ- مخاطر النجاح

قد يتبادر إلى أذهاننا أن والدينا، وعلى نحو بسيط تماماً، سيكونان دائماً مسرورين بنجاحنا (ومثلهم إخوتنا وأخواتنا وأصدقائنا وأفراد عائلتنا جميعاً). ففي آخر المطاف، كانوا جميعاً في غاية السرور عندما حققنا نتيجة جيدة في اختبار التهجئة عندما كنا في السنة السادسة من عمرنا؛ لذا، فما من

سبب واضح لئلا يكونوا سعداء دائماً بما نحققه من انتصارات مهما كانت تلك الانتصارات كبيرة أو متنوّعة.

إلا أن في هذا التفكير مخاطرة بأن نغفل عن جزء بالغ الأهمية من أجزاء النفسية البشرية - وإن يكن خفياً بعض الشيء - ألا وهو أن نجاحنا يمكن أن يكون مصدر «تشوّش واضطراب» بالنسبة إلى الأشخاص الذين من حولنا: آبائنا وأمّهاتنا خاصة. من هنا، قد يرغب لا وعينا في تجنبهم القلق، أو قد نقرّر تجاهل مشاعرهم لكن على حساب قدر غير قليل من القلق والإحساس بالذنب من ناحيتنا (هذه آلية يمكن أن تؤدّي بالمرء إلى لحظات من «التخريب الذاتي» لمساره المهني).

من الطبيعي أن يسعى الآباء والأمّهات إلى القرب من أبنائهم وبناتهم، فقد استثمروا قدرًا كبيرًا من الزمن في تقريبتهم من نظرتهم إلى العالم وفي تعليمهم كي يكونوا من أصحاب القدرات والمؤهلات. إلا أن ذلك الحب ليس غير مشروط، فعلى الدوام (تقريبًا) يكون محاطًا باشتراطات ومطالب خفية. ففي لحظة من اللحظات، يصطدم كرم الأهل بحدود رسمها ما كان لدى جيل سابق من قلة نجاحات وإنجازات، أو من قلة تقدير للذات. وقد تأتي لحظة يصير فيها الأبناء والبنات «خطرًا» يتهدد أهلهم، لا من خلال كسلهم وتقصيرهم بل على العكس من ذلك تمامًا: من خلال إنجازاتهم الكبيرة التي من شأنها أن «تبعدهم» عن البيت الذي انحدروا منه وأن توجه إلى الأهل «اتهاماً خفياً» لكيفية إدارتهم حياتهم في ما مضى.

قد يكون ما يحققه الأبناء والبنات من نجاحات مُعيّناً على نسيان الكثير من لحظات الأسف والتنازل (المسكوت عنها عادة) التي عاشها الآباء والأمهات. ويصح هذا خاصة عندما تصادف تلك النجاحات مراحل تراجع في مسار الأهل المهني: من الممكن أن يكون الأب قد نُقل إلى وظيفة هامشية وصار واضحاً له الآن أنه لن يبلغ مراتب الإدارة العليا أبداً؛ وقد تكون الأم مضطرة إلى خفض عملها إلى ثلاثة أيام فقط كي تعتني بوالدتها المريضة.

في لحظات من هذا النوع، قد يصير لدينا شعور بالذنب يعوقنا عن السير بخطى حثيثة خلف تطلعاتنا. لا نكون خائفين من أننا يمكن أن نفشل، بل من العواقب التي قد تترتب على نجاحنا. من الممكن أن تكون منافسة الأهل (أو منافسة الإخوة والأخوات) مشروعاً يثير حماسنا؛ لكن من الممكن أيضاً، وفي الوقت نفسه، أن يثير في نفوسنا فزعاً يجعلنا نختر أن نقلع عنه من غير تأخير.

ليس النجاح حالة خالية من التعقيدات، مع أنه أمر نتوق إليه. صحيح أنه يستقطب إعجاب الناس، لكنه يستقطب حسدهم أيضاً. يُظهر النجاح مزايانا وفضائلنا، لكنه يمثل بالنسبة إلى أولئك الذين من حولنا دليل «إدانة» قد يكون مهيناً لهم. فنحن ميالون إلى أن نعزو إخفاقاتنا في مسارنا المهني إلى تأثيرات العالم الخارجي: منغصات التراتب الوظيفي في المكتب، والتقلبات التي يعانيتها الاقتصاد. لكن الأسباب تكون

-في بعض الأحيان- أسبابًا داخلية محضة لا علاقة لها أبدًا بقلّة قدراتنا، بل ب«موانع نفسية» تجعلنا نحجم عن تجاوز من أنجبونا وربّونا. من الممكن أن «نفسل» كي نظل ناجحين في أمور أخرى نحن شديدي الارتباط بها. مثلاً، كيف لنا أن «نقلل من شأن» آبائنا وأمّهاتنا؟

عندما نستجوب أنفسنا فيما يتصل بتقدمنا في مساراتنا المهنية، يمكن أن نجرؤ على أن نطرح على أنفسنا أسئلة غريبة، لكنها مفيدة: من الذي قد يزعجه نجاحي؟ من يمكن أن تكون لديّ رغبة خفية في التفوّق عليه؟ من الذي أسعى إلى «الثأر» منه؟ ومن الممكن أيضًا أن نحاول إكمال بعض الجمل:

- إذا نجحت، فقد يشعر أبي ب...

- إذا نجحت، فقد تشعر أُمّي ب...

بطبيعة الحال، هناك بديل للنجاح: تدمير الذات! فقد ندرك كم يمكن أن يكون الإحساس بالرضا «مخيفًا». فمع أن السعادة هي ما نعتقد أننا ساعون إليه، فهي ليست حقًا تلك السعادة التي «نعرفها». فمن الممكن أن نكون قد ترعرعنا مع بعض الـ«سيناريوهات»، وأن نكون قد تعلّمنا كيف نتصالح مع «سيناريوهات» أكثر إعتامًا من ذلك، وذلك مع تطلّعنا إلى سيرة مهنية مرضية. من هنا، فقد تبدو آفاق المسار المهني الذي يرضينا -عندما تظهر لنا- شيئًا غير ما نصبو إليه، بل قد تبدو لنا مفزعة قليلًا. فهي غير ما كنا نتوقعه، وهي لا تجعلنا نحس اطمئنًا، وهي غير ما ألفناه. وقد نعلم إلى اختيار ما نراه

مألوفًا، حتى إن كان صعبًا، وتفضيله على أمور أخرى نرى أنها مرضية أو جيدة، لكنها تجعلنا نشعر بالغرابة. فإلنا ما نرى قد يبدو لنا مخاطرة لا نستطيع احتمالها. إنه يضعنا تحت رحمة الأقدار: نكون مفعمين أملاً، لكن العواقب تحمل معها إمكانية الخسارة. قد يتركنا «تدمير الذات» في حزن، لكننا نحسّ بأنفسنا «مسيطرين على الأمور» سيطرة آمنة مريحة لنا. لعل من المفيد أن نطلّ فكرة تدمير الذات هذه في أذهاننا عندما نحاول تفسير مسلكنا الغريب في شأن مساراتنا المهنية. وينبغي لنا أن نشك في الأمر عندما نضبط أنفسنا نقدّم أداءً ضعيفاً أمام الأشخاص الذين ينبغي أن نترك لديهم فكرة حسنة عنا. لعلنا نحاول بهذا أن نطلّ أوفياءً لنسخة «تعيّة» من أنفسنا.

علينا أيضاً أن ننتبه إلى «الأصدقاء». جاءت هذه الكلمة بين قوسين مزدوجين لأن ثمة الكثير من أولئك الذين ندعوهم أصدقاء ممن لا يلتزمون حقاً بأصول الصداقة التي نحب أن نقول لأنفسنا إنها موجودة. فكثيراً ما يحدث أن تكون المخاوف ونقاط الضعف المشتركة هي الخيط الرابط (بصمت) بين مجموعات الأصدقاء. فما يخشاه الأصدقاء جميعاً لا يقل أهمية عما هم معجبون به. انطلاقاً من هذا، من الممكن أن يؤدي نجاح -أو مبادرة جديدة- لواحد من الأصدقاء، إلى «تقويض» الرابط النفسي الحساس ضمن المجموعة. من حيث الظاهر، قد يقول أصدقاؤنا إنهم مرتاحون لأي أمر نفعله. وأما في حقيقة الأمر، فإن بعض ما نُقدّم عليه من خيارات يمكن أن

يسبب إضعافاً جذرياً لخياراتهم في الحياة. فإذا كنا نتعلم إجراء الأبحاث الطبية كي ندخل هذا الميدان، فكم يكون أصدقاؤنا حكماء إن أصرروا على القول لنا إنهم أشخاص «غير مهتمين بالمال»؟ وماذا يقول لنا أن يكون أصدقاؤنا قد أمضوا السنين العشر الأخيرة في ميدان النشر أو المحاسبة إن اتخذنا قراراً سريعاً بالعمل في شركة للتكنولوجيا، أو في واحدة من مزارع تربية المواشي؟

علينا أن نتحلّى بطبع كريم إزاء ما يثور في نفوس الآخرين من حسد، فهو آتٍ من موضع ضعيف، هش. لكن هذا يعني أيضاً أننا قد لا نتلقّى التشجيع والمساندة من حيث نتوقعهما - لا لأننا مخطئون، بل لأن صوابنا يثير لدى الآخرين نوعاً من الخوف-. قد يجعلنا هذا نحسّ بأننا مخطئون، لكن علينا أن نتحلّى بدم بارد وبقدر من «الابتعاد النفسي» كي نتخيل أن ما نسمعه منهم قد يكون كلاماً هادفاً إلى حفظ الذات، وكي ندرك أن كل تغيير في المسار المهني يحمل معه إمكانية وقوع خلاف بيننا وبين أقرب الناس إلينا. وقد يكون إزعاج من نحبه ثمناً لإقدامنا على فعل ما نريد. قد يكون علينا أن نتحلّى عن بعض الأصدقاء وأن نتخذ لأنفسنا أصدقاءً جدداً؛ وقد يكون علينا أن نصحح علاقاتنا ضمن العائلة. فمعرفة أن هذه الأمور كلها أجزاء ضرورية وطبيعية من النجاح يمكن أن تمنحنا الشجاعة اللازمة كي نستطيع التعامل مع واحد من أصعب الجوانب في السير قدماً في مسارنا المهني.

تمرين

نحن لا نفكر عادة في أن النجاح يحمل مخاطر. لكن هذه المخاوف قد تكون جاثمة في خلفية أذهاننا - لا تتوقع وجودها، لكنها ذات أثر لا يستهان به - فتعوقنا عن بذل الجهد بأفضل ما نستطيع.

الخطوة الأولى

من أية نواحٍ يمكن أن يكون نجاحك مزعجًا لوالديك حتى إن لم يقولوا هذا صراحة، بل حتى إذا كانا - في الوقت نفسه - معترزين بنجاحك.

قد يشعر ا بواحد، أو أكثر، من الأمور التالية:

- إنهما لم يستفيدا جيدًا من الفرص التي سنحت لهما.
- سوف تحزن عليهما إن قالا لك الحقيقة عن حياة العمل التي عاشاها، وهذا ما لا يحبانه.

- قد لا يظل لإنجازاتهما أثرها في نفسك لأنها ستبدو هامشية مقارنة بإنجازاتك.

- سيجدان صعوبة في التأقلم إن صار لديك مال أكثر مما لديهما (على سبيل المثال، قد يحب الأب أن يكون من يدفع ثمن كل شيء دائمًا، حتى عندما يتضح أن ذلك عبء ثقيل عليه، فهو «عبء بطولي»، لكنه سوف يُؤخذ منه).

الخطوة الثانية

بأية طرق يمكن أن يكون نجاحك مزعجًا بالنسبة إلى بعض أصدقائك؟ تخيل أن ترتقي ارتقاء سريعًا إلى موقع فيه قدر كبير من المسؤولية، أو أن تنجح في تكوين ثروة صغيرة، أو أن تحظى بفرصة قضاء الوقت مع المشاهير. هل تستطيع تخيل

أن هذه الأمور قد تجعل الحسد يدب -سرًا- في قلوب أصدقائك؟ وهل تخشى احتمال أن تصير غير مهتم بصداقتهم؟

الخطوة الثالثة

فكر في أصدقائك وزملائك. من منهم لن يكون مساندًا لك إذا أعلنت أنك ستغير عملك؟ ما السبب في رأيك؟ مثلًا، من الممكن أن يشعروا أنك تلومهم لومًا غير مباشر على أنهم غير مبالين إلى المغامرة. وقد يعتبرون أن في إقدامك على تغيير عملك إيحاء لهم بأن العمل الذي هو جيد من أجلهم ليس جيدًا بما فيه الكفاية في نظرك. ربما يكون لديهم قلق من أن شخصيتك سوف تشهد تغييرًا من شأنه أن يلحق ضررًا بالصداقة الحالية بينك وبينهم.

الخطوة الرابعة

ما موقف أصدقائك وأفراد عائلتك من استمرارك في عملك الذي تزاوله الآن؟ من الممكن أن يكون ذلك: هم معتادون على قيامك بهذا العمل، أو لقد ساعدوك في البدء وسوف يبدو في تغييرك عملك شيء من قلة الوفاء، أو يعجبهم أنهم قادرين على «مراقبتك» من خلال عملك الحالي، أو يخشون من أن كل تغيير قد يشتمل على مخاطرة وهم لا يريدون أن يلحق بك أي ضرر.

د- الثقة بالنفس والأصوات الداخلية

في حالات كثيرة، لا نعتزف بهذا الأمر -وقد لا نناقشه مع الآخرين أبدًا- لكن كثيرًا منا قد تكون لديه «أصوات» في رأسه عندما يهتم بالاستجابة إلى التحديات التي يواجهها في مساره المهني. ينشأ في أذهاننا تيار صاحب من الأفكار لا يكف عن التعليق على إنجازاتنا وتطلعاتنا.

أحياناً، تكون تلك الأصوات دافئة مشجعة تدعونا إلى العثور على مزيد من القوة في أنفسنا أو إلى الاستمرار في المحاولة: «كدت تحرز النجاح. تابع المحاولة!»؛ «لا تدعهم ينالون منك. استرح، وغدا ستجد نفسك مستعداً لمعركة جديدة». لكن تلك الأصوات تكون -في بعض الأحيان- أكثر قسوة علينا وإدانة لنا. تكون أصواتاً لائمة، انهزامية، مشبعة خوفاً وانتقاصاً من الذات. ليس في هذه الأصوات ما يشبه أفضل أفكارنا وقدراتنا الناضجة. وهي ليست أصوات «طبيعتنا الأفضل». «أيها الأحمق الغبي... أتظن أنك تعرف كيف تتغلب على ظروفيك؟». «أنت تحاول دائماً أن تهرب من حقيقة ذاتك التي تعرفها جيداً».

قد يبدو كلامنا مع أنفسنا بهذه الأساليب الفظة أمراً طبيعياً، لكن شخصاً غيرنا (في ظرف مماثل) يمكن أن يكون جارياً في ذهنه حوار داخلي من نوع شديد الاختلاف. ونتيجة ذلك، قد يبلغ أهدافه بطريقة ناجحة أكثر كثيراً مما نستطيعه. ففي نهاية المطاف، وإلى درجة كبيرة جداً، يكون النجاح مسألة ثقة بالنفس: إيمانٌ بأن ما من سبب لئلا يكون النجاح من نصيبنا. فكم من إنجازات عظيمة كثيرة أتت نتيجة تلك الجرأة الغريبة في الروح، الجرأة التي ندعوها ثقة بالنفس، لا نتيجة مواهب فائقة أو معارف فنية متميزة. وفي حقيقة الأمر، ليس هذا الإحساس بالثقة إلا نسخة «داخلية» من الثقة التي وضعها الآخرون فينا ذات يوم.

فالصوت الداخلي هو -دائمًا- صوت خارجي سمعناه في ما مضى فتشربناه وجعلناه لنا. ومن غير أن نلاحظ الأمر تمامًا، نحن «نستبطن» أصوات أشخاص كثيرين جدًا كانت لهم صلة بنا منذ طفولتنا حتى الآن؛ فقد تَمَثَّلنا تلك النبرة المحبة المُسامحة في صوت جدتنا، والتفكير المُصمَّم عند والدنا، وكذلك ما كان لدى والدتنا من صبر وتقشف مشبعين بروح مرحة. لكن من الممكن أيضًا أن نكون، خلال مسارنا، قد تشربنا صوت أب غاضب، أو تهديدات مخيفة من شقيق أكبر منا كان يحاول التقليل من شأننا، أو صوت زميل في المدرسة كان يتنمر علينا، أو صوت معلمة كان إرضاءها يبدو لنا مستحيلًا. نتشرب هذه الأصوات التي تضرنا لأنها بدت لنا -في لحظات مهمّة جدًّا في الماضي- مفروضة علينا ولا سبيل إلى تجنبها. لقد كانت تلك الرسائل كلها، وإلى حد كبير، جزءًا من عالمنا فصارت عنصرًا من العناصر التي تكوّن تفكيرنا.

يشتمل جزء من إتقاننا مهنة نستطيع أن نحبها على تصالحنا مع أصواتنا الداخلية. علينا أن نميز ونفهم الأصوات التي لها أثرها الخاص في أذهاننا، وما تقوله لنا هذه الأصوات، ومن أين يحتمل أن تكون قد أتت إلينا. علينا أن «نُنقح» الأصوات، وأن نحذف منها ما نراه غير مفيد لنا. لهذه الغاية، ينفعنا تذكير أنفسنا بأن لنا الخيار في انتقاء الأصوات التي تريحنا. وعلينا أن نبذل الجهد كي نضمن أن تصير طريقة مخاطبتنا أنفسنا أكثر وعيًا وإدراكًا بحيث تبتعد عن كونها نتيجة مصادفة،

وبحث «نخبط» للنبرة التي سنستخدمها منذ الآن فصاعدًا في استجابتنا إلى التحديات التي ستواجهنا.

فتطوير طريقة كلامنا مع أنفسنا وتحسينها يعني العثور على أصوات داخلية بديلة لا تقل عن غيرها إقناعًا وثقة، لكنها بناءة ومفيدة لنا. قد تكون أصوات صديق، أو معالج نفسي، أو واحد من الكتاب. نحن في حاجة أكبر إلى الإكثار من سماع هذه الأصوات عندما نقف أمام مشكلات محيرة، وذلك بحيث نجعلها استجاباتنا الطبيعية لتلك المشكلات. وهكذا يصبح -في آخر المطاف- إحساسنا بها أشبه بإحساسنا بما نقوله لأنفسنا: تصير أفكارنا نحن.

يكلّمنا أفضل الأصوات الداخلية بأسلوب لطيف، رقيق، غير لجوج. ينبغي أن تصير تلك الأصوات أشبه بذراع يطوّق كتفنا بها صديق متعاطف معنا، صديق عاش طويلًا ورأى أمورًا مختلفة كثيرة، لكنها لم تترك في نفسه خوفًا ولا مرارة. قد يكون ذلك الصديق شخصًا عاش عمره وشق طريقه على الرغم من العقبات والإخفاقات، فبلغ النجاح آخر الأمر أو استطاع تقبّل الفشل من غير أن يكره نفسه.

في بعض حالات «الإذلال» الذي نحسه في ما يتصل بعملنا، يكون لدى كثيرين منا إحساس بأن مشكلاتنا تحول بيننا وبين الحب. لذا، علينا أن «نرتبي» في داخلنا صوتًا يستطيع الفصل بين الإنجاز والنجاح وبين التعاطف: صوت يذكّرنا بأننا نستحق العطف والحب حتى عندما نفشل، وبأن كون

المرء فائزًا ليس إلا جزءًا واحدًا من شخصيته، وليس ضروريًا أن يكون هو الجزء الأكثر أهمية.

تقليديًا، هذا الصوت هو صوت الأم؛ لكن من الممكن أيضًا أن يكون صوت شخص يحبنا، أو صوت شاعر يعجبنا، أو صوت طفل في التاسعة من عمره يتحدث مع أمه أو أبيه عن التوتّر في مكان العمل. إنه صوت شخص يحبك لشخصك، لأنك أنت، وبصرف النظر عما استطعت إنجازه.

لقد نشأ كثيرون منا على مقربة من أشخاص متوتّرين: أشخاص تثور أعصابهم لحظة يعجزون عن العثور على مفتاح السيارة، أو أشخاص أفقدتهم صوابهم مشكلات «إدارية» صغيرة نسبيًا من قبيل فاتورة الكهرباء مثلاً. هؤلاء الناس ليست لديهم ثقة في أنفسهم، وبالتالي فهم غير قادرين على أن تكون لهم ثقة كبيرة في قدراتنا، وذلك من غير أن يرغبوا -بالضرورة- في أن يلحقوا بنا أي ضرر. يصيرون أكثر توتّرًا منا كلما كان لدينا امتحان. وعندما نريد الخروج، يطرحون أسئلة كثيرة عما إذا كانت ملابسنا كافية. يقلقون في شأن أصدقائنا وفي شأن معلّمينا، ويكون لديهم نوع من اليقين بأن الرحلة التي سنشارك فيها أثناء العطلة ستقلب إلى كارثة.

الآن، صارت هذه الأصوات أصواتنا، وصارت تلقي بظّلها على قدرتنا على التقدير السليم لما نستطيعه. إننا نستبطن أصواتًا هي أصوات الضعف والهشاشة والخوف غير العقلاني. وفي لحظات بعينها، نكون في حاجة إلى أصوات

بديلة قادرة على وضع حد لمخاوفنا التي تدعونا إلى الهرب، أصوات بديلة تذكّرنا بما لدينا من قوة كامنة فينا، تلك القوة التي يحجبها ذعرنا الحالي عن أعيننا. رؤوسنا خزائن كبيرة فيها كهوف غامضة كثيرة، وفيها أصوات الناس الذين عرفانهم جميعًا. علينا أن نتعلّم كيف نُسكت الأصوات الضارة، وكيف نركّز على الأصوات التي نحن في حاجة حقيقية إليها كي تقودنا وتأخذ بيدنا عبر ما يعترض مسارنا المهني من صعوبات.

تمرين

الغاية من هذا التمرين تنقيح الأصوات الداخلية التي تكون لدينا.

الخطوة الأولى

اسأل نفسك عما تقول عادة عندما:

- تخشى حدوث أمر سيئ.

- تُقيّم سير الأمور.

- يكون لديك ضيق من واحد من الناس.

- تجد صعوبة في مهمّة من المهمّات.

- تنتبه إلى أن أحدهم قد تأخّر.

- تجد نفسك مضطّرًا إلى فعل أمر لا تريد فعله.

- تفلح في إنجاز أمر من الأمور.

إن من شأن طرحك هذه الأسئلة على نفسك أن يلقي ضوءًا على

الطريقة التي نتحدّث فيها مع أنفسنا مع أن ذلك يجري عادة

بطرق مألوفة جدًا لا ننتبه إليها أكثر الأحيان. يساعدنا هذا

التمرين على أن نعتاد ملاحظة كيفية عمل عقولنا.

الخطوة الثانية

كيف يمكن أن تصف الأمور التي تقولها لنفسك؟ أيها تراه سلبياً، وأيها تراه إيجابياً أو مفيداً؟

الخطوة الثالثة

هل تستطيع إقامة صلة بين واحد من هذه الأصوات الداخلية وبين بعض الناس في ماضيك؟ من هم؟ حدّد شخصاً -أو أشخاصاً- مقابل كل صوت من الأصوات.

الخطوة الرابعة

اعثر على أكثر تلك الأصوات لطفاً: تخيل كيف يكون الأمر إن تحدّث إليك بصوت أعلى، أو إن تحدث إليك مرات أكثر. ماذا سيقول لك في كل حالة من الحالات؟

هـ- فخ النزوع إلى الكمال

عادة ما نستهدف مساراً مهنيًا بعينه لأن لدينا تأثرًا عميقًا بما أنجزه أبرز العاملين في ذلك الميدان. فنحن نصوغ تطلعاتنا وانطباعاتنا انطلاقًا من إعجابنا بالمباني الجميلة التي صممها ذلك المعماري من أجل مطار المدينة الجديد، أو متابعتنا الإنجازات الجريئة لأغنى مديري الصناديق الاستثمارية في وول ستريت، أو قراءتنا تحليلات ذلك الروائي البارز، أو تقليدنا تلك الوجبات اللذيذة جدًا التي يعدّها طاهٍ فاز مطعمه بجائزة كبيرة. نحن نصوغ خطط مسارنا المهني على أساس «الكمال».

بعد ذلك، بعد أن يشير أولئك «المعلمون الكبار» الإلهام

في نفوسنا، نخطو خطواتنا الأولى فتبدأ متاعبنا ومشكلاتنا. ما نفلح في تصميمه أو صنعه في الشهر الأول من عملنا، أو ما نفلح في كتابته في أول قصة قصيرة لنا، أو ما ننجح في إعداده من أجل وجبة الأسرة، يكون أدنى كثيرًا (بل كثيرًا جدًا) من «المعيار الرفيع» الذي أطلق شرارة طموحاتنا. نكون شديدي الانتباه إلى ما شدّ انتباهنا من تميز كبير، فينتهي بنا الأمر إلى ضعف القدرة على قبول نتائج متواضعة... وفي هذه الحالة، تكون تلك النتائج المتواضعة هي ما نتج عن محاولتنا.

نصير عالقين ضمن مفارقة مزعجة جدًا: لقد أطلقت العظمة طموحاتنا، لكن كل ما نعرفه عن أنفسنا يشير إلى «ضعف قدرة أصيل». يعني هذا أننا واقعون في ما نستطيع أن نسميه «فخ الكمال» الذي هو انجذاب شديد إلى الكمال من غير توقّر فهم ناضج أو كافٍ لما يقتضيه الوصول إليه.

في المقام الأول، ليس الذنب ذنبنا. وذلك أن الإعلام يدخل تنقيحات كثيرة على قصص حياة متميزة لملايين الأشخاص فيزيل منها سنوات الفشل والإحباط والضيق حتى لدى أولئك الذين توصلوا إلى إنجازات كبيرة. تقوم وسائل الإعلام بهذا من غير أن تكشف عنه، أو ربما حتى من غير أن تدرك أنها تفعله، وذلك حتى تستطيع أن تقدّم إلينا كل يوم قصصًا متميزة جدًا، فينتهي الأمر بتلك القصص إلى أن تبدو كأنها استثناءات بعيدة عنا كل البعد، لكنّها تظل قاعدة، أو معيارًا أو نموذجًا رفيعًا من نماذج الإنجاز والنجاح. يبدو الأمر لنا وكأن النجاح يحالف

«الجميع»، وذلك لأن كل من نسمع عنهم يكونون أشخاصًا ناجحين فعلاً. في هذه الحالة، نكون قد نسينا التفكير في بحار الدموع والقنوط التي لا بد أنها قد أحاطت بهم جميعًا.

إن نظرتنا إلى الأمور غير متوازنة لأننا على معرفة جيدة جدًا بما لدينا من صعوبات، نعرفها من الداخل، لكن قصص الإنجازات التي نراها من الخارج تبدو لنا خالية من أية مشقة أو ألم. لا نستطيع أن نغفر لأنفسنا محاولتنا البائسة الأولى؛ وذلك راجع (في القسم الأكبر منه) إلى حقيقة أننا لم نرَ أبدًا المحاولات الأولى لأولئك الذين نحن معجبون بهم.

نحن في حاجة إلى صورة أكثر تعقلاً عن حجم الصعوبات الكامنة خلف كل ما نحن راغبون في محاكاته. فمثلاً، علينا ألا ننظر إلى كبرى الأعمال الفنية في المتاحف. علينا أن نذهب إلى المرسم كي نرى النسخ الفاشلة المعدّبة الأولى من تلك الأعمال نفسها، وكي نرى آثار دموع الفنان على الورق عندما انهيار وبكى. علينا أن نركّز على الزمن الطويل الذي مرَّ على ذلك المعماري قبل أن يحصل على أول تكليف بعمل تصميمي مهم (كان قد تجاوز الخمسين). وعلينا أن ننقّب باحثين عن القصص الأولى التي أنتجها ذلك الكاتب الذي يحرز الجوائز الآن. وعلينا أن نتفحص كم كان على رائد الأعمال الناجح أن يعاني الفشل مرات كثيرة.

لا بد لنا من إدراك ما للفشل من دور ضروري مشروع، ومن أن نسمح لأنفسنا بأن نمضي وقتًا طويلاً في فعل أشياء فيها

عيوب كثيرة... فهذا ثمن لا نستطيع تفادي دفعه مقابل فرصة ستسبح لنا ذات يوم - قد يكون هذا بعد عشرات السنين - فننجز واحدًا من تلك الأمور الكبيرة التي يظنّها الناس نجاحًا تلقائيًا جاء من غير مشقة.

تمرين

الميل إلى الكمال نوع من أنواع نفاذ الصبر وعدم فهم كم ينبغي أن تكون الأشياء «صحيحة» حتى تُكتب لها الحياة.

الخطوة الأولى

فكّر في شخص يعمل في مجالك وتُكّنّ له إعجابًا كبيرًا. دوّن قائمة بأكبر إنجازاته.

الخطوة الثانية

حدّد المرات التي فشل فيها، أو حاول أن تتخيّلها. قد لا تكون على علم بالتفاصيل، لكن ثمة مشاريع لوحات لم تنجح، وخططًا انتهت إلى الفشل، وكتبًا لم تكن جيدة، وأفلامًا أخفقت كثيرًا، وصفقات لم تكتمل.

الخطوة الثالثة

ارسم مسار خط حياة بطلك: كم طال الزمن الذي انقضى في المحاولات الفاشلة والأعمال غير الممتازة؟ وكم مرة ساءت فيها الأمور، لكنها ظلّت - بشكل عام - ماضية على المسار الصحيح؟

الخطوة الرابعة

يشتمل الميّل إلى الكمال على فكرة مفادها أن الفشل لا يمكن أن يعيش مع النجاح جنبًا إلى جنب. وهذه الفكرة ناشئة، في جزء

منها، عن المبالغة في القلق على ما يمكن أن يحدث إذا لم تسر الأمور على أحسن وجه.

- كيف تُعرّف الفشل؟ وهل يعرّفه الآخرون عادة مثلما تعرّفه أنت؟

- متى عانيت فشلاً؟

ما النتائج التي ترتبت على فشلك؟ هل كانت سيئة بالقدر الذي توقعته؟

و- فخ الواجب

يكون اهتمامنا كبيراً بالمسرّة والتسلية في أوائل حياتنا. ففي سنواتنا الأولى، لا نكاد نفعل شيئاً غير تصيّد ما يمتعنا والسير خلف «هدف اللذة» مستعينين بأقلام التلوين وبُرك الماء والألعاب والكرات والكمبيوترات وأشياء كثيرة نعثر عليها في أدراج المطبخ. وما إن يصير شيء من الأشياء مزعجاً أو مضجراً لنا حتى نتخلّى عنه من غير أي تردّد ونمضي باحثين عن منابع متعة جديدة... ولا يبدو لنا أن هناك من لديه اعتراض كبير على هذا كله.

بعد ذلك، وعلى نحو مفاجئ عندما نبلغ الخامسة أو السادسة من العمر، نتعرّف على حقيقة جديدة مرعبة: «دور الواجب». يعني هذا أن ثمة أموراً، بل أموراً كثيرة في واقع الأمر، يتعيّن علينا فعلها لأننا نحبها أو نرى لها معنى، بل لأن أشخاصاً آخرين ينتظرون منا أن نفعلها (أشخاصاً يمارسون علينا سلطتهم ويثيرون ذعرنا لأنهم يبلغون ثلاثة أضعافنا حجماً). وبكل صرامة، يشرح لنا أولئك الأشخاص الكبار أن

نفعل ما يريدون منا فعله الآن كي نصير في المستقبل قادرين على كسب المال وشراء بيت والذهاب في رحلات... مستقبل سيأتي بعد ثلاثين سنة من الآن! يكلمونا بحيث يبدو لنا هذا كله شيئًا كبير الأهمية.

حتى عندما نكون في البيت ونشرع في البكاء قائلين لأهلنا إننا لا نريد كتابة ذلك الموضوع عن البراكين، الموضوع الذي طلبوه في المدرسة من أجل يوم غد، فمن الممكن أن يخذلنا أهلنا ويقفوا في صف «الواجب». قد يكلمونا غاضبين نافذي الصبر (لا يكون من خلف ذلك الغضب أي شيء غير قدر كبير من الخوف علينا). يقولون لنا إن من المستحيل أن يستطيع المرء تدبّر أموره في عالم الكبار إذا كان شخصًا تنقصه الإرادة اللازمة حتى من أجل إنجاز واجب بيتي بسيط عن الحمم البركانية لأنه يفضل بدلًا من ذلك أن يخرج ويتسلق شجرة.

تظلّ تلك الأسئلة عما يستمتع المرء حقًا بفعله وعما يمنحه مسرة تظهر لنا على امتداد مرحلة الطفولة، لكن ظهورها يتناقص. يصير ذلك كله «أمرًا موضوعة جانبًا» بعيدًا عن عالم الدراسة اليومية؛ تصير أمورًا محصورة بأيام العطلات فقط. هنا، يظهر تمييز جوهرى: الهوايات من أجل المتعة، وأما العمل فهو مؤلم.

لا عجب أبدًا في أن هذا الانقسام يصير مترسّخًا في نفوسنا عندما نصل إلى آخر دراستنا الجامعية. وعادة ما نصير غير قادرين على أن نتساءل جديدًا عما نحب حقًا، في أعماق قلوبنا،

أن نفعله في حياتنا: ما الأمر الممتع الذي يمكن أن نفعله في السنين الباقية لنا. هذا ناتج عن الطريقة التي تعلّمنا أن نفكر بها. وذلك أن «حكم الواجب» كان الإيديولوجيا المسيطرة خلال ما لا يقل عن ثمانين بالمئة من زمن وجودنا على الأرض فصار كأنه طبيعة ثانية لنا. وصرنا مقتنعين بأن من الطبيعي أن يكون العمل الجيد بليدًا، مضجرًا، مزعجًا في جوهره. لو لم يكن كذلك، فلماذا يدفعون لنا مقابل القيام به؟

يتمتع أسلوب التفكير المنطلق من الواجب بمنزلة رفيعة لأنه يبدو «درب السلامة» في عالم تنافسي كبير إلى حد مخيف. إلا أن «حكم الواجب» ليس، على الإطلاق، ضمانًا للأمان الحقيقي. فما إن ننهي تعليمنا حتى يظهر لنا كأنه مسؤولية ثقيلة متكررة في ثوب فضيلة. يصير الواجب «خطيرًا» على نحو لا لبس فيه. ثمة سببان لهذا.

الأول هو أن النجاح في الاقتصاد الحديث، لا يحالف عادة- إلا من يستطيعون إبداء قدر استثنائي من التفاني ومن سعة المخيلة في أعمالهم. وهذا ليس ممكنًا إلا عندما يكون المرء، وإلى حد كبير، مستمتعًا بعمله (أمر غير متفق أبدًا مع كون المرء مستنفدًا أو متبرّمًا معظم الوقت). لا نستطيع أن نولد مستويات عالية من الطاقة ومن الجهد العقلي اللازم للتميز في خضم المنافسة إلا عندما يكون لدينا حافز حقيقي. وأما العمل الذي يكون ناتجًا عن الإحساس بالواجب فقط، فغالبًا ما يبدو ضعيفًا أو ناقصًا إن هو قورن بالعمل الناتج عن الحب.

الأمر الثاني الذي يحدث عندما يكون عملنا مدفوعًا بإحساسنا الداخلي بالمسرة هو أننا نصير أكثر قدرة على إدراك مسرات الآخرين - أي إدراك مسرات العملاء والزبائن الذين تعتمد الشركة عليهم. نصير أكثر قدرة على إرضاء «جمهورنا» عندما نستعين بما في نفوسنا من إحساس بالمتعة.

بكلمات أخرى، ليست المسرة نقيضًا للعمل: إنها مكوّن جوهري من مكونات العمل الناجح.

إلا أنه يتعيّن علينا إدراك أن سؤال أنفسنا عما قد تكون لدينا رغبة حقيقية في فعله - من غير أن يكون المال أو السمعة من بين الاعتبارات الأولى، أو المباشرة - أمرٌ يعاكس كل ما لدينا من افتراضات رسّخها التعليم في شأن ما هو قادر على أن يحافظ على أماننا؛ ومن هنا فهو تساؤل مخيف إلى حد ما. لا بد من قدر كبير جدًّا من النضج والتبصّر كي نستطيع التمسك بالحقيقة التالية: نخدم الآخرين خدمة أفضل ونقدّم إلى المجتمع أكبر مساعدة نستطيعها عندما نضع في عملنا جوانبنا الشخصية الأكثر إبداعًا وأصالة، تلك الجوانب التي هي جزء من شخصيتنا. يستطيع «الواجب» أن يضمن لنا حدًّا أدنى من الدخل، لكن ما من شيء يمكن أن يولّد نجاحًا حقيقيًا غير العمل المخلص القائم على المسرة.

عندما يعاني الناس تحت «حكم الواجب»، فقد يكون مفيدًا أن نلتفت إليهم ونطلب منهم تخيل كيف يمكن أن ينظروا إلى حياتهم عندما يصيرون على فراش الموت. وهذا لأن فكرة الموت قد تكون مفيدة في إبعادنا عن هيمنة خشيتنا مما قد

يظنّه الآخرون بنا. يذكّرنا التفكير في الموت بواجب أعلى من واجبنا إزاء المجتمع: واجبنا إزاء أنفسنا، إزاء مواهبنا وقدراتنا، إزاء ما يهمننا ويلهب عواطفنا. إن النظر «انطلاقاً من فراش الموت» قادر على دفعنا إلى إدراك ما في «درب الواجب» من مجازفة ومن خطر.

تمرين

الخطوة الأولى

أثناء ترعرعك، هل كنت تفكّر في أن العمل أمر ينبغي أن تجد فيه متعة لك؟ حاول تذكّر مناسبات بعينها: لعلك كنت في العاشرة، وكنت عائداً من المدرسة إلى البيت، فتبادر إلى ذهنك أنك ستكون، ذات يوم، في حاجة إلى الحصول على عمل. هل تخيلت عملاً يبعث الإثارة في نفسك - مثلما تفعل المغامرات - أم عملاً أشبه بالواجب لأنك تكون دائماً مضطراً إلى فعل شيء لا تحسّ رغبة حقيقية في فعله؟ في رأيك، لماذا فكّرت في الأمر هكذا؟

الخطوة الثانية

إذا وُجد ما يضمن لك دخلاً كافياً، لكنه يتطلب منك فعل أمر من الأمور (أي شيء) لمدة لا تقل عن أربعين ساعة كل أسبوع، فماذا يمكن أن يكون ذلك العمل؟ هل تحسّ حماسة إزاء الهوايات ونشاطات أوقات الفراغ أكبر من حماسك للعمل؟ كيف تكون مشاعرك إذا استطعت أن تُسقط الإحساس بالواجب من الحساب؟

الخطوة الثالثة

ماذا يمكن أن تعمل إذا لم يكن الواجب أمراً مطروحاً؟

ز- متلازمة «المحتال»

في أنواع كثيرة من التحديات التي تواجهنا، سواء أكانت شخصية أم مهنية، تعترض سبيلنا فكرة مزعجة جدًا مفادها أن من هم مثلنا لا يمكن أن ينتصروا، وذلك انطلاقًا مما نعرفه عن أنفسنا: لدينا قدر واضح من الغباء، والقلق، والارتباك، وقلة الخبرة، والسوقية، والبلادة. نحن نترك للآخرين احتمال النجاح لأننا لا نرى في أنفسنا أي شيء مما يشبه الناس الذين نراهم موضع إعجاب. وعندما تواجهنا أعباء المسؤولية أو المكانة الاجتماعية، نفتنح سريعًا بأننا لسنا أكثر من «محتالين»... وذلك مثلما يكون ممثل يؤدي دور طيار فيرتدي ملابس الطيار ويجلس في مقصورة القيادة ويتكلم في المايكروفون في حين يكون عاجزًا حتى عن تشغيل محركات الطائرة. بكل بساطة، قد يكون من الأفضل، والأسهل أيضًا، ألا نحاول.

إن السبب العميق لـ«متلازمة المحتال» هو الصورة الخاطئة، الضارة جدًا، لطبيعة الناس الحقيقية. نحسّ بأننا «محتالون» أو «كاذبون» لا لأن فينا عيوبًا ونقائص فريدة فحسب، بل لأننا نعجز عن تخيل مقدار ما في غيرنا من عيوب عميقة كامنة تحت المظهر الخارجي الزاهي.

كما أن جذور «متلازمة المحتال» ممتدة وصولًا إلى أيام طفولتنا، وبشكل خاص إلى ذلك الإحساس القوي لدى الطفل الذي يقول له إن والديه شديدا الاختلاف عن بقية الناس. فبالنظر إلى طفل في الرابعة من العمر، تكون حقيقة أن

أمه كانت في سنه ذات يوم حقيقة غير قابلة للفهم مثلها مثل حقيقة أنها غير قادرة على قيادة السيارة، أو على أن تقول لمن يأتي لإصلاح المغسلة ما يتعين عليه فعله، أو أن تقرّر مواعيد نوم أشخاص آخرين (غير أطفالها)، أو أن تسافر بالطائرة مع زملائها في العمل. تبدو الهوة بين الأهل وبقية الناس مطلقة، غير قابلة للتجاوز. ثم إن حب الطفل الحماسي -عندما يقفز على الأريكة، وعندما يلعب لعبة من الأطفال، أو يأكل الشوكولاته اللذيذة- لا علاقة له بالحب الذي يعرفه الكبار الذين يعجبهم أن يجلسوا إلى الطاولة ساعات طويلة يتحدثون في ما بينهم (مع أنهم قادرون على الذهاب كي يلعبوا في الخارج)، ويشربون البيرة التي يشبه طعمها طعم الصدا. نبدأ حياتنا وفي أذهاننا انطباع قوي مفاده أن الآخرين (بشكل خاص، الآخرين الذين هم موضع إعجابنا والذين هم أصحاب قدرات كبيرة) ليسوا مثلنا أبدًا. مكتبة سر من قرأ

تتفق هذه «التجربة الطفولية» مع جانب أساسي من جوانب «الشرط البشري». نحن نعرف أنفسنا من الداخل، لكننا نعرف غيرنا من الخارج. ونحن نحسّ دائمًا، من الداخل، كل ما لدينا من قلق وشكوك وغباوات، لكننا لا نعرف عن الآخرين شيئًا غير ما نراهم يفعلونه أو ما نسمعه منهم؛ وهذا مصدر معلومات أضيق كثيرًا وأشدّ خضوعًا لـ «التنقيح» من جانب أصحابه. وفي أحيان كثيرة جدًّا، ينتهي بنا الأمر إلى استنتاج أننا لا بد أن نكون أغرب بني البشر وأكبرهم عيوبًا مع أننا بعيدون جدًّا عن

ذلك. كل ما في الأمر هو أننا نعجز عن إدراك أن لدى الآخرين اضطرابات لا تقل أبدًا عما هو لدينا. صحيح أننا لا نعرف على وجه التحديد ما يزعج، أو حتى ما «يدمّر»، شخصًا آخر يبدو من الخارج قويًا جدًّا، لكننا نستطيع أن نكون واثقين من أن لديه أمورًا من هذا القبيل. وقد لا نعرف بالضبط ما يأسف له أو يندم عليه، لكن لا بد أن توجد لديه مشاعر «تعذّبه» مهما يكن نوعها. لا نستطيع أن نعرف بالضبط نوع الهواجس الجنسية غير المألوفة التي تشغل ذهنه، لكن لا بد من وجود شيء من هذا. نستطيع أن نكون واثقين من ذلك كلّه لأن الوسواس ونقاط الضعف لا يمكن أن تكون «لعنات» لم تصب من الناس أحدًا غيرنا: إنها سمات عامة في التركيبة الذهنية البشرية.

إن حل «متلازمة المحتال» كامن في إنجاز قفزة إيمانية حاسمة، قفزة مفادها أن عقول الآخرين تعمل -من حيث الأساس- مثلما تعمل عقولنا. لا بد أن يكون كل إنسان قلقًا، أو غير واثق، أو مضطربًا مثلنا. نقول إنها قفزة إيمانية لأن علينا قبول أن أكثر ما نحسّه (وخاصة الجوانب المخجلة التي لا تأتي على ذكرها) له ما يشبهه في نفس كل واحد منا.

من المستحسن كثيرًا أن تضطلع الأعمال الفنية بمهمة أخذنا إلى عقول الناس الذين نُجلِّهم كي تجعلنا نرى ما فيها من تجارب عادية، مضطربة، شديدة الفائدة لنا. فهذه الطريقة، تساعدنا تلك الأعمال على فهم أن نقاط ضعفنا ليست هي ما يمنعنا من فعل ما نريد فعله. هذا ما حاول الفيلسوف مونتاني

فعله عندما أخبر قراءه بطريقة فكهة وبلغة فرنسية واضحة أن «الملوك والفلاسفة يتغوّطون»؛ وذلك ما تفعله السيدات أيضًا. ما أراده مونتاني هو أننا (نتيجة كل ما نعرفه عن فعل التغوّط) قد نظن أن أولئك الناس لا يجثمون في المرحاض مثلما نجثم. فنحن لا نرى الأشخاص المتميزين يفعلون ذلك، لا نراهم أبدًا؛ في حين نعلم تمام العلم - بالطبع - كل ما هو متصل بنتائج عمل جهازنا الهضمي. من هنا، ينشأ لدينا إحساس ينبئنا بأننا لا نستطيع أن نكون فلاسفة أو ملوكًا أو سيدات راقيات لأن لدينا هذه الأمعاء الفظة التي يحدث أحيانًا ألا تطيق صبرًا على إفراغ محتوياتها. بالتالي، لن نكون إلا «محتالين» إن حاولنا أن نضع نفسنا في تلك المراتب.

هذا المثال معبر تمامًا لأننا نعلم - على الرغم من أننا لا نرى دليلًا على ذلك - أن أولئك الناس ذوي المراتب الرفيعة لا بد لهم من التغوّط مثلما يفعل غيرهم. بمعونة مونتاني، نجد أنفسنا مدعويين إلى اعتماد نظرة أكثر تعقلًا إلى حقيقة البشر العظماء الأقوياء. لكن الهدف الحقيقي ليس مقتصرًا على تبديد صورة خاطئة في ما يتصل بالوظائف الجسدية، بل هو ممتد إلى الميدان النفسي أيضًا. فلعلّ مونتاني يمكن أيضًا أن يقول لنا إن الملوك والفلاسفة والسيدات يعانون شكوكًا في أنفسهم، ويعرفون مشاعر العجز، ويصطدمون بالأبواب أحيانًا، وتمر بهم أفكار شهوانية غريبة قد تكون متجهة إلى بعض أفراد عائلاتهم. فضلًا عن هذا، وبدلًا من أن نحصر تفكيرنا في فرنسا القرن

السادس عشر وحدها، نستطيع أن نقوم «بتحديث» ذلك المثال فنعكسه على المديرين التنفيذيين وعلى محامي الشركات الكبرى ومذيعي التلفزيون ورواد الأعمال الناجحين. فهؤلاء أيضاً، يعجزون أحياناً عن التلاؤم مع ما يحيط بهم، ويشعرون بأنهم موشكون على الانهيار تحت الضغوط، ويتذكرون بعض قراراتهم بقدر من الندم والإحساس بالخجل. وعلى غرار فعل التغوط، ليست هذه المشاعر هي ما يفصلنا ويميزنا عنهم. ليس ما في دواخلنا من ضعف وهشاشة هو ما يمنعنا من فعل ما يفعلون. لو كنا مكانهم، لما كنا «محتالين»... بكل بساطة، سنكون أشخاصاً طبيعيين.

إن تلك «القفزة الإيمانية» في ما يخص حقيقة الأشخاص الآخرين تساعدنا في أنسنة العالم. فهي تعني أننا عندما نصادف شخصاً غريباً، فنحن لا نصادف شخصاً غريباً حقاً، بل شخصاً يشبهنا كثيراً من حيث الجوهر حتى إن كانت المظاهر الخارجية تشير إلى عكس ذلك؛ وبالتالي، فما من شيء جوهري يفصل بيننا وبينه، وما من شيء جوهري يفصل بيننا وبين النجاح وتولي المسؤولية وإحساس بالإشباع والرضا.

تمرين

الخطوة الأولى

فكر في بعض جوانب الضعف التي لديك والتي لا يعرف عنها الآخرون شيئاً أو لا يتوقعون وجودها عندك. حتى إذا ظننت أن

تلك الجوانب واضحة، فإن فيك الكثير جداً مما تجيد إخفائه. تخيل أن واحداً من الناس تصيبه دهشة كبيرة عندما يكتشف فيك أمراً من تلك الأمور. ما الذي سيكون مفاجئاً له؟

الخطوة الثانية

اسأل نفسك عما يجعل هذه النواقص ونقاط الضعف التي لديك غير مرئية دائماً بالنسبة إلى الآخرين. هل تحاول إخفاءها لأنك راغب في خداع الآخرين والاحتتيال عليهم؟ أم إن لديك أسباباً أخرى أقل سوءاً. لعلك لا تحاول أبداً إخفاءها عنهم! إن كانت تلك الأمور تظل مخفية أكثر الأحيان، فمن الممكن جداً أن يكون هذا ما يحدث لدى الآخرين أيضاً.

الخطوة الثالثة

تخيل الآن إجراء هذا التمرين بطريقة معاكسة. فكّر في شخص يحظى بإعجابك، ثم حاول تخيل أنه يحاول عدم إظهار ما لديه من مشكلات، وذلك لأسباب بسيطة ليس فيها ما يمثل خطراً أو ما يدعو إلى القلق. ماذا يمكن أن يكون لديه من عيوب ومخاوف؟

حـ فخ استثمار العمل

يحدث أحياناً كثيرة أن يبدو أفق انتقالك إلى عمل تحبّه أمراً شديداً الصعوبة لأنه ينطوي على مرحلة مرهقة من «إعادة التموّضع». سيكون هناك انخفاض في الدخل - حيناً من الزمن، على الأقل - وسيكون عليك أن تكتسب مهارات جديدة؛ وقد تضطر للعودة إلى حيث كنت؛ وسوف تمر بفترة من «ضعف الأداء» النسبي؛ وسيكون من هم في مثل سنك قد سبقوك في هذا العمل بعينه؛ وربما تكون قد حكمت على نفسك ببضع

سنين من المرتبة المنخفضة في العمل. قد تجد هذا مهيناً لك؛ وقد تجده بطيئاً. إنه أمر يخالف طبيعة الأشخاص الطموحين ممن لديهم دافع طبيعي قوي يجعلهم راغبين في انطلاقة سريعة، وفي رؤية نتائج ملموسة من غير تأخير، وفي تحقيق تقدّم واضح. ومن الممكن أن تكون فكرة الحاجة إلى مزيد من التدريب مصدر إحباط عميق. يلوح فخ «استثمار العمل» عندما يبدو مسار مهني آخر شديد الإغراء، لكن ما يستلزمه من استثمار «في الزمن وفي الكرامة الشخصية» يكون أمراً شديد السلبية بحيث يزيح المرء الفكرة كلّها جانباً ويتخلّى عنها... لكن تكلفة ذلك تكون جسيمة في آخر المطاف.

ثمة مفارقة في أن «فخ استثمار العمل» يكون أشد صعوبة في سن الشباب. تخيل شخصاً في العشرين؛ وتخيل أنه يخطط لمسار مهني في الهندسة الكيميائية، وأنه في سبيله إلى اكتساب المؤهلات اللازمة. يختار مواضيع بعينها في المدرسة، ويدرس المقررات المطلوبة في الجامعة، ويكتسب قدرًا من خبرة العمل ذات الصلة بهذا المجال، ويتعرّف على بضعة أشخاص يزاولون أعمالاً تشبه ما يتمناه لنفسه. لقد «استثمر» الكثير حتى هذه اللحظة. لكنه يبدأ الآن التفكير جدياً في أن عليه أن يتطلع إلى مسار مهني من نوع مختلف تمامًا. لعل عليه -كي يجد عملاً يستطيع أن يحبه أن يسعى إلى أن يصير معمارياً أو عالم أحياء بحرية. على الأرجح، سوف يكون هذا في حاجة إلى استثمار «ما لا يقل عن سنتين».

عندما يكون المرء في الثانية والعشرين، تبدو فترة سنتين طويلة جدًا. إنها فترة تقارب عشرة بالمئة من العمر الذي عاشه حتى الآن. بل هي أكبر من ذلك إن نظرنا إليها من الناحية النفسية. ففي سن العشرين، من الممكن أنك لم تبدأ الإحساس بأنك «أنت» إلا منذ أن كنت في السادسة عشرة. قبل ذلك، كنت في غشاوة الطفولة والمراهقة ولم تكن لديك أية فكرة حقيقية عما يمكن أن تكونه حياتك. من هنا، تبدو فترة سنتين كأنها نصف حياتك. هذه مخاطرة كبيرة.

ما يصعب إدراكه كثيرًا - مع أنه في غاية الأهمية - هو كيف ستبدو الأمور في المستقبل... في سن السادسة والخمسين، على سبيل المثال. من تلك النقطة، يصير لفترة سنتين معنى مختلفًا أشد الاختلاف. إنها لا تتجاوز واحدًا من عشرين (أي خمسة بالمئة) من أربعين سنة ممتدة بين السادسة عشرة (أي عندما بدأ يظهر اهتمام حقيقي باحتمالات العمل) وبين بلوغ المرء أوج أواسط العمر. فمع الزمن، يصير طول فترة الدراسة «أصغر» نسبيًا إن هو قورن بحياة العمل كلها، وذلك في حين تصير عواقب عدم الإقدام على تلك الخطوة أكبر كثيرًا.

يحدث ما يشبه هذا في ما يمكن أن نسميه «فخ استثمار الحب». لعلك كنت في علاقة مع شخص منذ سنتين، لكنك ترى أن هذه العلاقة - على وجه الإجمال - ليست جيدة جدًا مع أن فيها لحظات جميلة جدًا. لكنك تظل مستمرًا لأن «الاستثمار» اللازم لكي تجد ما هو مناسب أكثر أمر مرهق

جدًا. يبدو لك الحاضر أكبر من حقيقته، ويبدو لك المستقبل بعيدًا جدًّا (ذلك المستقبل الذي سيشكل، في واقع الأمر، الشطر الأكبر من حياتك) فلا تمنحه ما يستحقه من وزن.

لهذا الأمر سببان كبيران. السبب الأول، هو أن المستقبل البعيد مرتبط بـ«حكاية انحدار وتراجع». ففكرة التقدّم في السن ليست مما يعجبنا كثيرًا. نحن شديدو الحساسية إزاء التقدّم في السن، ولا ننظر عادة إلى المستقبل عندما نصير في السادسة والخمسين، أو في السابعة والستين. وهكذا نجد سهلاً علينا - بل مفر لنا - أن نتفادى التفكير في ما ستكونه حاجاتنا واهتماماتنا في تلك المراحل من وجودنا التي لا تزال بعيدة في المستقبل.

نحن نعيش في ثقافة شديدة الإعجاب بالشباب. ونجد ما يذكّرنا دائماً بكم هو جميل أن يكون المرء في سن الشباب، لكننا نادرًا ما نصادف ما يشجعنا على التفكير في ما قد يكون جذابًا أو مثيرًا للاهتمام في التقدّم بالسنّ. من هنا، فنحن لا «نستثمر» في محاولة تبين ما سوف يعيننا على أن نحيا جيدًا في أواسط العمر. حتى نتغلّب على هذا النزوع لا بد لنا من رسم خطوط زمنية كي نرغم أنفسنا على رؤية أن المدة الفاصلة بين السادسة عشرة والرابعة والعشرين أقصر كثيرًا من الفترة الفاصلة بين الرابعة والعشرين والثامنة والأربعين أو بين الثامنة والأربعين والثانية والسبعين. ففي اليوتوبيا الثقافية، نكون في الثانية والعشرين فيحصل لنا كثيرًا أن نشاهد أفلامًا ونقرأ كتبًا

عن الحياة في أواسط العمر، وكثيرًا ما نذكر أنفسنا بأن من هم في الخمسينيات يكونون في أوج عمر العمل، فتلك هي المرحلة التي ينجزون فيها ويكسبون فيها أكثر من أية مرحلة ينجزون ويكسبون في أية مرحلة أخرى. إن قمنا بهذا، فنحن بنى نوعًا من ارتباط مُتخيل مع وجودنا في المستقبل بحيث لا نقيس استثماراتنا الآن بتجاربنا التي لم يمض عليها إلا وقت قصير، بل ننظر إليها في ضوء مستمد من صورة أكثر دقة لشكل حياتنا كلها.

العامل المهم الثاني الذي يجعل سهلًا علينا سهولة مؤذية جدًا أن نمتنع عن إدخال المدى البعيد في حساباتنا هو أننا نعيش -عادة- داخل «فقاعة المرحلة الزمنية». نمضي الشطر الأكبر من حياتنا مع مجموعات من الناس ممن هم في سن قريبة من سننا فلا نكتسب القدر الكافي من الخبرات العابرة للأجيال، ولا نقرب من العالم الداخلي لأشخاص أكبر منا كثيرًا. والنتيجة أننا لا نستطيع أن نفهم جيدًا حقيقة واقع المرحلة العمرية التي يعيشونها.

ينبغي أن تكون لدينا استراتيجية أكثر نجاعة. علينا أن ندفع الناس إلى أن يحاولوا أن يشرحوا لنا تجربتهم في الحياة. علينا أن نطرح أسئلة تستهدف إجابات بعينها، وعلينا أن نواصل السبر والمتابعة. علينا أن نطلب منهم مزيدًا من التفاصيل. وعلى وجه التحديد، لا بد من سؤالهم عن التغير الذي شهدته نظرتهم وآراؤهم على مر السنين... فما الذي صاروا الآن

ينظرون إليه نظرة مختلفة، ولماذا؟ ليس علينا أن نفعل هذا مع شخص واحد فقط، بل أن نجعله سلوكًا عامًا نكرره دائمًا. قد يبدو غريبًا، لكننا سنرى أنه منطقي، وأنه عملي، عندما نفكر فيه. فحتى نتمكن من شق طريقنا إلى عمل نستطيع أن نحبه، يكون من بين ما يتعين علينا فعله أن ننفق بعض الوقت في تطوير علاقتنا مع أشخاص أكبر منا سنًا. ليس ضروريًا أن يكونوا أشخاصًا يزاوون الأعمال التي نفكر فيها. الفكرة هنا أكثر عمومية. إننا نبحث عن عون لنا في التعامل الجاد تمامًا مع أمر ذي أهمية بالغة، لكن إسقاطه من الحساب سهلٌ سهولة مذهشة: كيف سيكون واقع حياتنا على امتداد عشرات السنين في المستقبل.

نحن في بحث دائم عن طرق نساعد بها أنفسنا على التفكير في مستقبلنا بطريقة أكثر واقعية وامتلاء بحيث نغدو قادرين على اتخاذ قرارات كبرى أكثر تبصرًا. ولعلنا، عند ذلك فقط، يصير في استطاعتنا أن نقدر تقديرًا صائبًا القيمة الحقيقية لـ «استثمار» صعب لكنه مهم لأنه يعيننا - بتكلفة سوف تبدو لنا مقبولة جدًا، لكن في وقت لاحق - على العثور على مسار مهني نستطيع أن نكون مؤمنين به إيمانًا حقيقيًا.

تمرين

إذا علمت أنك ستعيش مئتي سنة (أي إنك سوف تتقاعد عندما تصير في الثالثة والسبعين بعد المئة)، فكيف ستنظر إلى إنفاق سنتين في تلقي تدريب جديد من أجل اتخاذ مسار مهني

مختلف؟ هل يغير هذا طريقة تفكيرك؟

في حالات كثيرة، يكون مثيراً للاهتمام تخيل أن المرء في ضيق من وقته لأن هذه طريقة حسنة من أجل التركيز على الأولويات. لكن من المفيد أيضاً أن ننظر إلى الأمر من الناحية الأخرى. فماذا لو لم يكن لدينا أي شيء يدعونا إلى التعجل؟ إن في وسعك أن تمنح أجزاء من شخصيتك فسحة مختلفة مع أنك تجد نفسك -في الأحوال العادية- مضطراً إلى التفاوضي عنها. قد لا تقلقك مسألة الحصول على عمل مناسب في وقت سريع لأنك يمكن أن تبحث عنه بعد عشرات السنين من الآن (فسوف تعيش طويلاً جداً). لن يثير قلقك أمر التقاعد أو أمر تغيير مساراتك المهنية لأن المستقبل سيكون طويلاً جداً، وستجد أن الأمر يستحق التجريب والمحاولة. هذه تجربة عقلية تساعدنا في رؤية ما هو كامن في عقولنا، لكنه عادة ما يظل مكبوتاً لأننا قلقون في شأن الزمن.

تمرين

الخطوة الأولى

عد بذاكرتك إلى أحاديث جرت بينك وبين أشخاص تعرفهم معرفة جيدة، أشخاص أكبر منك سنًا بعشرين عامًا، أو بثلاثين عامًا، لكنهم ليسوا أبويك، وليسوا من أفراد عائلتك الكبيرة. يتشكّل تفكيرنا في مراحل حياتنا في المستقبل، وإلى حد كبير، بأثر من التجارب التي عشناها (أو التي ظللنا مفتقرين إليها)، تجارب حملت إلينا رؤية واضحة عن حياة أشخاص في مراحل من العمر بعيدة جدًا عن أعمارنا.

الخطوة الثانية

إذا أزعنا سلبيات اللحظة الراهنة جانبًا، فما الذي نجده «لطيفًا» في أن يكون المرء في الخامسة والأربعين، أو في الستين، أو في الخامسة والسبعين؟ نحن نعيش ضمن ثقافة تميل إلى الإعجاب بالشباب إعجابًا شديدًا. ومن الممكن لهذا الأمر أن يجعل التقدم في السن يبدو كأنه كارثة ستصيبنا؛ وهذا ما يؤدي بنا إلى مواجهة صعوبة أكبر في التفكير تفكيرًا جادًا في «ازدهار أحوالنا». ولكن، إذا استطعنا التفكير في ذلك، فقد نجد أن التقدم في السن يمكن أن يكون «لطيفًا» بعض الشيء. يمنحنا هذا منظورًا أفضل: نستطيع أن نجد في أنفسنا اهتمامًا أكبر بمستقبلنا على المدى البعيد، بل ربما يجعلنا أقل قلقًا في شأنه.

الخطوة الثالثة

ما هي بواعث القلق أو الأسف التي تستطيع توقع وجودها لديك عندما تبلغ تلك السن؟

ط- لو كانت فكرة حسنة، لما كنت الشخص الذي يهتدي إليها نجد أحيانًا أن بعض أفكارنا في شأن العمل الذي نريده حقًا لا علاقة لها بما هو موجود في اللحظة الراهنة. تتكوّن في أذهاننا فكرة عمل، أو مشروع، نستطيع أن نحبه؛ لكننا ننظر في العالم من حولنا فلا نجده موجودًا في أي مكان. ندرك أننا سنكون مضطرين -إن سرنا في هذا الاتجاه- إلى اختراع حلول من عندنا: سيكون علينا أن نصير من رواد الأعمال. إن في مجتمعاتنا قدرًا كبيرًا من الإثارة المحيطة برواد الأعمال. من الممكن أن نراهم تجسيدًا لـ«قمة الإنجاز». لكن ثمة

أيضاً جملة من المخاوف في شأن ما يمكن أن يكون ضرورياً للمرء كي يبدأ بمفرده. يسهل كثيراً أن يفقد المرء شجاعته وأن يشك في سلامة دوافعه الأصلية. وفي حالات كثيرة، في مركز شكوكنا في أنفسنا - تبدو حقيقة أن ما نريده غير موجود حالياً كأنها تشير إلى أنه لا يمكن أن يكون ذا قيمة -. ليس ما يحدث هنا - في حقيقة الأمر - هو أننا نكتشف عدم جدوى فكرتنا، أو أنها غير صحيحة. فالواقع أننا نجد صعباً تخيل أنفسنا محلاً لأفكار أصيلة. لدينا أفكار ورؤى، لكننا نقلل من شأنها، لماذا؟ لأنها من عندنا! فنحن نتعامل هنا مع نوع بعينه من أنواع ضعف الثقة بالنفس، نوع يغزو إيماننا بأنفسنا وبأننا قادرون على أن نكون مبدعي أمر جديد مهم.

إن كلمة «رائد أعمال» في حد ذاتها كلمة غير موقفة تماماً. فمن الممكن أن توحى بأن ثمة نوعاً خاصاً من البشر، نوعاً لعله تكون هكذا منذ الولادة، يستطيع أن يمتلك قدرات نادرة ليس لنا (إن كنا عقلانيين) أن نتوقع وجودها لدينا. إنهم «رواد أعمال»، لكننا لسنا كذلك! نحن نبني صورة عقلية عن هؤلاء الناس تجعلهم يبدو كأنهم مختلفون عنا اختلافاً جذرياً، أو كأنهم يمتلكون «أرواحاً» ذات طبيعة سحرية لا نستطيع فهمها (مع أننا معجبون بها أيما إعجاب). كي نستطيع تجاوز هذه العقبة، علينا أن نعيد التفكير في ما يفعله رواد الأعمال.

قد يكون أول ما يتبادر إلى أذهاننا عند استخدام كلمة «رائد أعمال» صورة شخص يجهز كمية كبيرة من العروض التقديمية

من أجل جمع الأموال، شخص يظل ساهراً يشرب القهوة في الليل ويراجع ملفات الحسابات، شخص شديد الاهتمام بالتكنولوجيا يعيش في شقة صغيرة ويقود دراجة من نوع خاص. لكن هذه كلها أمور ظرفية عارضة. من حيث الجوهر، ليس رائد الأعمال المبدع أكثر من شخص لديه فكرة صحيحة عما يريد الآخرون حقاً.

أول الأمر، قد لا يبدو هذا شيئاً يصعب تعلمه كثيراً لأنه متصل برغبات بشر مثلنا، وبحاجاتهم. لن نكون في حاجة إلى فعل شيء غير الذهاب إليهم وسؤالهم. ينبغي أن تتقرر منتجات الغد وخدماته عن طريق جمع عينة عشوائية من الناس وسؤالهم عما سيحبون شراءه في يوم من الأيام. لكن مشكلة غريبة، شائكة إلى حد ما، تطل برأسها عند هذه النقطة: عادة، لا يعرف البشر الآخرون مسبقاً ما سوف يريدون، أو ما سوف يحتاجون إليه، أو ما سوف يعجبهم. فحتى إذا استجابوا يوماً من الأيام استجابة حماسية لهذا المنتج أو ذاك، فهم غير قادرين على إعطاء مبتكره ما يلزمهم من معلومات حتى يستطيعوا إخراجه إلى حيز الوجود. هؤلاء الناس قادرون على تأكيد الأفكار، لا على ابتداعها. فالكثرة الغالبة من الابتكارات العظيمة لم يكن ممكناً لها أن تظهر انطلاقاً من استطلاعات الرأي. من هنا، يكون رائد الأعمال المبدع مرغماً على اللجوء إلى مصدر معلومات أكثر غموضاً وأقل توقّعاً، مصدر معلومات سهل كثيراً أن يغفل المرء عنه لأنه موجود في كل مكان، ولأن ما من أحد يوليه قيمة كبيرة، ولأن فهمه (لعل هذا هو السبب

الأهم) شديد الصعوبة: إنه عقولنا. عندما نعرف كيف نصغي إليها، تكون عقولنا وأجسادنا أجهزة فائقة الحساسية في إعطائنا، دقيقة فدقيقة، إشارات ممتازة عن احتياجاتنا و عما يرضينا. ولما كانت هناك مشتركات كثيرة جدًا بين الطبائع البشرية، فإن ذلك يكون دليلًا على ما يحتاجه الآخرون أيضًا، وعلى ما يحقق رضاهم. فإن عرفنا كيف نستبطن أغوار ذاتنا، وإذا كانت لدينا القدرة على قراءة أنفسنا قراءة صائبة بقدر من الوضوح وسعة الخيال من غير تحيز أو انفعال، فسوف يوفر لنا هذا كل (تقريبًا) ما قد يلزمنا كي نعرف الاحتياجات المهمة لدى الناس الذين من حولنا، تلك الاحتياجات التي يصير ممكنًا لنا أن نبني مشروعنا استنادًا إليها. فمن حيث الابتكار، غالبًا ما تكون معرفتنا أنفسنا وفهمنا الآخرين أمرًا واحدًا من حيث الجوهر. ينطوي السبر الناجح لما في نفوسنا (السبر المؤدي إلى الابتكار) على قدر كبير من الشجاعة لأن الكثير مما نريده حقًا ومما نرغب فيه، قد يكون مخالفًا لما يعتبره المجتمع عاديًا أو طبيعيًا. فعادة ما تشتمل الأفكار الشائعة عن الخدمات والمنتجات على أفكار واستجابات بعيدة جدًا عن الحقائق القائمة فعلاً، لكن الجميع يكون شديد التهذيب ويكون «منقطعًا» عن استجاباته الحقيقية الأصيلة إزاء السؤال المطروح. فمن الممكن أن يعني إخلاصنا لأنفسنا اضطرارنا إلى عدم الإخلاص لكثير مما له مكانة رفيعة لدى الناس.

فالمبتكرون الناجحون، سواء أكان ذلك في ميدان الفن أم في الأعمال، هم من يستطيعون البقاء مخلصين لأفكار كانت

تبدو، عندما طُرحت أول مرة، شديدة القرب من الغرابة التي ينكرها الجميع. لا يمكن أن يكون إدوارد هوبر (1882 - 1967) أول إنسان يحس ما في محطات القطارات من سحر منعزل، أو ما في عشاء في ساعة متأخرة من «غفلة» تريح النفس، أو ما في يوم أحد في الضواحي من غربة تثير الرهبة في القلب. إلا أن من أتوا قبله أهملوا تلك الأحاسيس واستعجلوا البعد عنها لأنهم لم يتلقوا مساندة من المجتمع عامة. فالشخص الذي ندعوه فنائنا أو رائد أعمال هو - من بين صفات أخرى - إنسان أقل مبالاة من الآخرين بأن يعتبره الناس غريب الأطوار بعض الشيء عندما يشرع في «إنقاذ» بعض من أحاسيسه التي تحمل معنى عميقاً (مع أن الناس لم يألفوها بعد) وفي البناء عليها. لقد صار هوبر فنائنا عظيماً من خلال وفائه الشديد لمنظوراته الخاصة.

خلال القسم الأكبر من تاريخ العمارة الحديثة، كانت المصاعد من أقل العناصر المعمارية تمتعاً بحب المصممين ومن أكثرها «تعرضاً للظلم». كان المعماريون يعتنون كثيراً بإخفاء بئر المصعد إذ يعتبرونه غير مثير للاهتمام، وغير جدير بأن تقع عليه أنظارنا. مع هذا، كان بعضنا ينتابه أحياناً (عندما كنا أطفالاً خاصة) إحساس بأنه شديد الاهتمام بالأجزاء المخفية من المصاعد، وبذلك اللحظات التي تنفتح فيها الأبواب فنحظى بلمحة سريعة من بئر المصعد نفسه وننتبه إلى صدى الصوت الساحر فيه، وإلى كثرة الكابلات والبكرات وآليات التوازن التي هي كلها أكثر إثارة للاهتمام من أي شيء

آخر يمكن أن نراه في المبنى. لقد صار المعماري البريطاني ريتشارد روجرز مبتكرًا كبيرًا (صار أيضًا رائد أعمال كبيرًا)، لأنه عرف كيف يكون وفيًا لأحاسيس الإثارة في ما يتصل بالتكنولوجيا عامة وبالمصاعد خاصة. فبدلًا من أن يفعل ما هو «مهذب» وما يعرفه الجميع، ظل مخلصًا لحماسته وظل واثقًا من أن قسمًا كبيرًا منا يشاركه إياها من خلف لا مبالاتنا الظاهرية. فابتداءً من «مركز بومبيدو» في باريس (1971)، ظلت مبانيه تترك مصاعدها ظاهرة مكشوفة، فتجعل رحلاتنا بين الطوابق لحظات نُعجب فيها بالعبقريّة التقنية ونحس كيف تعلق معنوياتنا محلقة عندما تتصل بما في الهندسة الحديثة من ديناميات ذكية.

كان جون مونتاجو (معروف أكثر باسم إيرل أوف ساندويتش) قادرًا على نيل أفضل الخيارات المتاحة من أجل العشاء في زمانه (1718 - 1792). فقد كان في وسعه أن يتناول شريحة لحم مقدمة على طبق من فضة، أو أجنحة دجاج مشوية مع الشمندر المحمص. وكان من الممكن أن تقدّم إليه فطيرة بالبصل أو طبق من الحساء الأبيض. لكنه كان دقيق الملاحظة إلى حد جعله يدرك أنه يفضل - وهو يلعب الورق مع أصدقائه في النادي في وسط لندن - أن يتناول شيئًا يستطيع أن يأكله بيد واحدة، وبسرعة معقولة، من غير أن يلوث الدسم أصابعه. ومن هنا فقد دعا إلى وضع اللحم بين طبقتين من الخبز. وبدلًا من أن يكون ذلك استجابة إلى نزوة غريبة جدًا (هكذا قد يبدو

الأمر للنادل الذي فاجأه هذا الطلب)، صارت السندويشات استجابة ذكية لحاجة لم يتوقف أحد عندها قبل ذلك.

لا تبدو مصادفة على الإطلاق أن ساندويتش كان من الأرستقراطيين. فمع أن أهم ابتكاراته قد صار الآن طعامًا يتناوله كل يوم ملايين الموظفين في المكاتب، فهو يحمل طابع عقل لديه من الثقة ما يسمح له بأن يأخذ ما فيه من أفكار على محمل الجد، عقل ليس فيه أي أثر من التكبر أو الطبع الأرستقراطي الإقطاعي.

فالإقطاع والأرستقراطية هما، بمعنى من المعاني، فئتان عقليتان قبل زمن طويل من كونهما فئتين اجتماعيتين. وذلك أن العقل الإقطاعي، الذي يمكن أن نجده في أية طبقة اجتماعية، يتخيل أن الآخرين، لا محالة، يعرفون أكثر، وأن ما على المرء إلا أن يطيعهم. وأما العقل الأرستقراطي الذي لا ضرورة أبدًا لأن يكون الإنسان واحدًا من النبلاء حتى يحمله، فيعتقد بأنه لا يزال قادرًا على بلوغ اكتشافات كبرى على الرغم من كثرة من سبقوه. لقد كانت لدى ساندويتش ثقة بنفسه سمحت له بأن يخوض تجربة تفكير أساسية لدى المبتكرين: كان قادرًا على أن يسأل نفسه عما يجب فعله أو عما يجب التفكير فيه إن استطاع امتلاك ثقة كافية تمكنه من احتمال انتقادات الآخرين وسخرتهم منه.

في سنة 1841، نشر الفيلسوف الأميركي رالف والدو إيمرسون أكثر مقالاته عمقًا. وقد حملت عنوان «الاعتماد على الذات». في تلك المقالة وضع الكاتب لنفسه مهمة فهم منبع

العظمة في الأعمال ومؤسسات الحكومة والفنون والعلوم. وقد كانت إجابته شافية إلى حد مؤثر. فالعابرة هم أولئك الذين يعرفون كيف يسبرون أغوار أنفسهم ويثقون بأحاسيسهم وأفكارهم: «أن تؤمن بأفكارك، وتؤمن بأن ما هو صحيح بالنسبة إليك في أعماق قلبك صحيح بالنسبة إلى الناس جميعًا... فتلك هي العبقرية». مع أن ثمة دائمًا ما يغرينا بالاعتقاد بأن الآخرين لا بد أن يعرفوا الإجابة، فإن المبتكر «يتعلم كيف يتحسس ويرصد ذلك الشعاع من الضوء الذي ينبثق في عقله ومن داخله أكثر مما يتحسس وهج سماوات الشعراء والحكماء... فنحن نرى أفكارنا التي أهملناها ونبذناها ماثلة في كل عمل من أعمال العبقرية: إنها تعود إلينا بذلك الجلال الذي رفضناه».

من هنا، فالفارق بين العقل المبدع والعقل غير المبدع لا يكمن في أن لدى الشخص المبدع أفكارًا مختلفة، بل في أنه يتعامل مع ما في عقله تعاملًا أكثر جدية. إن الصفة التي تمكنه من فعل ذلك صفة عزيزة جدًا على إيمرسون: القدرة على مقاومة الخوف من سخرية الناس.

وذلك أن تواضع شأن المرء ناتج عن ميله إلى الاسترشاد بما يفعله ويقوله الناس عادة أكثر من الاسترشاد بالأفكار والأحاسيس التي تجول (تحت السطح مباشرة) في ذهنه. فعلى نحو مشوش غير واضح، نعلم في دخيلتنا ما يمكن فعله، لكننا لا نثق بحدسنا الصامت هذا. فنحن منصاعون - في الواقع - لقصة «إقطاعية» ناطقة بالخضوع: الآخرون فقط هم من يمكن أن يأتوا بأفكار حسنة.

إن الـ«سيريال بار» موجود الآن؛ بل يصعب التفكير في أنه لم يكن موجوداً في يوم من الأيام. لكنه ظهر سنة 1975 وكان ثمرة عمل المخترع ستانلي ماسون (هو من ابتكر زجاجة الكاتشب القابلة للضغط). كان جذر المشكلة تلك الخشية من الظهور بمظهر الغرابة، الخشية التي نعرفها الآن: الخوف من أن يبدو المرء سخيفاً إن هو ابتكر منتجاً يتكون فقط من بضع شرائح من حبوب الإفطار ملتصقة معاً. فعلى امتداد عشرات السنين، اعتاد الناس العودة إلى البيت وإدخال أيديهم في علبة حبوب الإفطار، ثم تناول تلك الرقائق من غير حليب؛ لكنهم لم يتعاملوا مع ما يفعلونه تعاملًا جاداً. لم يتوصلوا إلى إدراك أنهم يفعلون شيئاً يمكن أن يكون أساساً لصناعة بأسرها إن هو اتخذ منحى تجارياً. إن ذلك الخوف من ظهورنا بمظهر الغرابة يواصل «سحق» قدر لا يستهان به من أفضل أفكارنا.

الغاية من استعراض هذه الأمثلة على ريادة الأعمال هي التخلص من تلك «الأقفال» الداخلية المحيطة بأفكارنا، وذلك في شأن نوع العمل الذي نريد حقاً أن نزاوله. فحقيقة أن فكرة من الأفكار لم يطبقها أحد بعد لا تعني أبداً أنها ليست فكرة حسنة. فما يجعلها فكرة حسنة هو مقدار الوضوح والدقة اللذين يتجلبان من خلال اتفاقهما مع إحساسنا بما يعجبنا ويمتّعنا. ولهذا فإن إجراء تحليل متأنٍ لنقاط مسرتنا ليس تسلية فارغة ولا هو مهمة هامشية: إنه الطريق المفضية إلى فهم ما قد نستطيع تقديمه إلى الآخرين.

تمرين

الخطوة الأولى

استعرض واحدًا من أيامك، ولاحظ ما فيه من أمور سرتك أو ضايقتك، ودونها كلها.

قد تكون تلك الأمور تافهة من حيث ظاهرها:

- أعجبني كيف كان سائق الباص يتوقف ويقلع بكل سلاسة. أظنه معتز بمهاراته في القيادة.

- لم أستطع أن أحمل، في وقت واحد، كأس القهوة والمظلة وحقيبة الأوراق.

أو قد تكون أمورًا مهمة:

- لفت نظري أسلوب الشريك الشاب في إعادة المناقشة إلى الموضوع المهم، وكيف استطاع تلخيص الموضوع كله بطريقة ذكية شديدة البساطة.

- كان لديَّ إحساس مزعج استمر طيلة الصباح لأنني واصلت التفكير في المشاجرة السخيفة التي جرت الليلة الماضية بيني وبين صديقتي، لكنني لم أستطع أن أحمل نفسي على الاعتذار منها لأن الذنب لم يكن ذنبي وحدي.

الخطوة الثانية

ما الذي يمكن استخلاصه مما أثار في نفسك عدم الرضا أو التوق أو الحب؟ ما الذي تشير إليه هذه المسرّات والمنغصات في ما يتصل بالمنتجات والخدمات؟ لا يمكن أن يقود كل شيء إلى استنتاجات ملموسة قابلة لأن يُبنى عليها (قد لا توجد سوق حقيقية من أجل ملاقط خاصة لتثبيت كأس ورقية إلى مقبض

مظلة). الغاية من طرحك هذه الأسئلة على نفسك هي أن تعتاد التعامل الجاد مع ردود أفعالك من حيث هي إلماحات إلى حاجات قد تكون موجودة لدى الآخرين أيضًا.

تمرين: «إصلاح» جزء من العالم

الخطوة الأولى

أي جزء من العالم تراه غير صحيح فيزعجك ذلك؟ ما الذي يؤلمك أن تسمع عنه، وما الذي يلامس نفسك، وما الذي يجعلك تبكي، وما الذي يستقطب اهتمامك كله عندما تتابع التلفزيون؟ هل يمكن أن يكون ذلك شيئاً من قبيل توقف الأهل والأبناء عن تبادل الحديث، أو أن حروباً تنشب، أو أن أطفالاً يتيّمون، أو أن المباني قبيحة، أو أن التعليم بطيء وغير متّسق؟

الخطوة الثانية

الخطوة الثانية هي رؤية ما تستطيع فعله - أنت نفسك - في شأن تلك المشكلة. المهمة هنا هي أن تبحث عما لديك من مهارات يمكن أن تكون مفيدة في حل المشكلة. هل أنت مفاوض بارع؟ هل تعرف كيف يكون الأسى والحزن؟ هل أنت قادر على تصميم شقق سكنية أرخص ثمنًا لكنها تحقق تطلعاتك الجمالية؟

الخطوة الثالثة

أخيرًا، انظر إلى المسافة الموجودة بين مشكلات العالم وبين ما تستطيع المساهمة به من أجل حلّها. اعثر على منطقة التقاطع الصغيرة حيث يكون لديك شيء متميز تستطيع تقديمه بغية المساعدة في إصلاح العالم.

عندما نفكر في تغيير مسارنا المهني، من السهل جدًا أن يصيبنا القنوط نتيجة حجم التغيير الذي نفكر فيه. فنحن نتخيل التغيير بطرق دراماتيكية متفجرة. نحس كأننا نفكر في ثورة في حياتنا. ينبغي أن يكون كل شيء مختلفًا. وأكثر الأحيان، يكون ذلك مرهقًا جدًا ويكون احتمالًا لا نستطيع الترحيب به.

علينا إدراك أن تصوّرنا عما يمكن أن يبدو عليه التغيير وكيف يمكن أن يحدث قد يصير، في حد ذاته، عاملًا إشكاليًا يمنعنا من فعل أي شيء. قد نظلّ متمسكين بما هو لدينا، وقد نندفع في الاتجاه الآخر، فنقفز قفزة كبيرة مفاجئة صوب مراجعة واسعة، أو قد نستقيل من العمل ونرحل إلى قارة أخرى. إننا نفتش عن أشياء غير معروفة بالنسبة إلينا، ونبحث عن حدود قصوى. هذا لأننا سائرون خلف فكرة طبيعية (لكنها خاطئة) مفادها أن التغيير - إن كان له أن يحدث - لا بد أن يكون دراماتيكيًا.

هذه العادة العقلية المؤذية موجودة أيضًا في علاقاتنا. الأحوال صعبة، ونعلم أن علينا أن نقوم بأمر ما كي نحسن حياتنا. ولكن، بدلًا من ترتيب سلسلة تغيّرات صغيرة يمكن أن تساعدنا في جعل علاقاتنا الحالية تتحسن قليلًا، فإننا نتخذ خيارًا «بركانيًا»: نبدأ علاقة أخرى، ثم نترك البيت، ثم ينتهي بنا الأمر إلى الطلاق.

المقاربة الأكثر نفعًا هي أن نفكر في خطوات صغيرة وفي تغيّرات متدرّجة: يعني هذا ارتقاء، لا ثورة.

الارتقاء عملية ذات قيمة كبيرة من أجل التغيير، لكنها فكرة يصعب أن نصير مؤمنين بها. والسبب في ذلك هو أن رؤية «حركتها» صعبةٌ كثيرًا. وهذا ما يجعل الإيمان بوجودها صعبًا بدوره. أثناء عملية الارتقاء، نادرًا ما تكون هناك لحظة حاسمة يبدو عندها التغيير واضحًا للعيان. يشبه هذا نمو الأطفال: لا نلاحظ عادة ما يجري كل يوم من تغيير عند الطفل، لكن الرضيع الذي يكون عمره أحد عشر شهرًا، عندما يحبو على السجادة وتشد انتباهه علاقة مفاتيح برتقالية اللون، لا يلبث أن يصير فتىً طويل القامة في السابعة عشرة، ويصير شديد التعلق بركوب الدراجة. نعلم أن مليون تغيير صغير قد أصابه في كل يوم على امتداد تلك السنوات كلها، لكن أيًا من تلك التغيرات لا يعلن عن نفسه ولا يتخذ مظهر نقلة كبيرة أو مهمة. إلا أن العظام كانت تنمو، والأربطة تزداد طولًا، والنواقل العصبية تتشكل، والخبرات تتراكم شيئًا بعد شيء، والآراء والاهتمامات تتخذ شكلًا واضحًا.

مما يساعدنا في رؤية الارتقاء الشخصي بشكل أوضح أننا نهتم كثيرًا بأعياد الميلاد، فهي تتيح لنا محطات مقارنة منتظمة متباعدة بالقدر الكافي لأن نستطيع رؤية الآثار التراكمية الناجمة عن تلك التغيرات الصغيرة. هذا ما يجعل رسم علامات على باب المطبخ تبين ازدياد طول الطفل مع كل سنة أمرًا مؤثرًا في النفس. لا نستطيع العين البشرية ملاحظة التغيرات الجارية أسبوعيًا بعد أسبوع. لكن تلك العلامات التي نرسمها لا تنفك

تعلو سنة بعد سنة. هذه «خدعة» نعوض بها ضعفنا الطبيعي ألا وهو صعوبة إيماننا بعمليات لا نستطيع رؤيتها. ليست عقولنا شديدة البراعة في تتبّع سير الارتقاء.

هذه أيضًا مشكلة يعانها المؤرخون منذ وقت طويل. فإذا أردت استعراض التغيرات الكبيرة التي يشهدها مجتمع على امتداد مئة سنة، يكون مغريًا لك أن تنظر إلى الحوادث العامة الكبيرة (انتخاب حكومة جديدة، أو موت شخصية عامة مهمة، أو نشوب حرب، أو عقد معاهدة سلام). وأما في واقع الأمر، فغالبًا ما يكون تراكم ملايين التغيرات الصغيرة هو ما أحدث تغييرًا. صحيح أن القراءة عن تلك التطورات الصغيرة ليست مثيرة لنا، لكنها أكثر دقة من حيث قدرتها على شرح ما كان جاريًا حقًا وعلى تفسير ما جعل الأمور تنتهي إلى ما انتهت إليه. ليس أمرًا مفاجئًا أن نجد صعوبة في التعامل مع حياتنا من منظور ارتقائي. وذلك أنه ليس لدينا المران الكافي لرؤية العلاقة بين التغيرات الصغيرة وبين التغيرات الكبيرة الشاملة. ولكن، حتى نعثر على عمل نستطيع أن نحبه، علينا أن نكون متعقلين وأن نجرب القيام بخطوات أولى متواضعة. قد يبدأ الأمر بأن نتلقى درسًا مسائيًا واحدًا كل أسبوع، أو بأن نُمضي ثلاثة أيام من عطلتنا في استطلاع خيار من الخيارات، أو في تلقي تدريب على عمل جديد بحيث لا يشغل ذلك إلا جزءًا من وقتنا وبحيث يمكن أن تستمر العملية سنتين. من الممكن أن يبدأ تغيير كبير جدًا من خلال أمر ليس فيه شيء دراماتيكي

-من حيث ظاهره- أكثر مما في تطوعنا من أجل مسؤولية جديدة في عملنا الحالي. إن الخطوات الصغيرة قادرة على تعزيز شجاعتنا من خلال منحنا إحساسًا بأن لدينا موهبة في ميدان لا تزال خبرتنا فيه بسيطة جدًا. تحطّم تلك الخطوات الصغيرة فكرة ضارة (لكنها شائعة جدًا) مفادها أن علينا إما أن نطلّ كما نحن أو أن نغير كل شيء دفعة واحدة. إن لدينا خيارًا ثالثًا لا ننتبه إليه لأنه أقل بريقًا. وهو خيار علينا أن نجربه: الخطوات الارتقائية البطيئة المتأنية.

تمرين

بدلاً من أن نضغط على أنفسنا ضغطًا كبيرًا كي نخطّط من أجل تحولات كبيرة، ثم ننفذها، من الممكن أن نجرب تجزئة مشاريعنا إلى «مغامرات» جانبية صغيرة. ما التغييرات الصغيرة التي تستطيع القيام بها كي تساعدك في اكتشاف إن كانت لديك مواهب في ميدان من الميادين، وذلك من غير اضطرارك إلى القيام بالخطوة الثورية الكبيرة المتمثلة في الالتزام الكامل بذلك التغيير؟

على سبيل المثال:

- اطلب تجربة ميادين عمل أخرى ضمن مكان عملك الحالي.
- خذ عطلة تمضيها في عمل مختلف. اطلب أن يُسمح لك بمتابعة واحد من الناس مدة أسبوع تراقب خلاله ما يفعله في العمل.
- أقم صداقة مع شخص يعمل ضمن الميدان الذي تفكّر فيه.

- إذا كان عليك أن تغيّر مكان عيشك من أجل عملك الجديد، فحاول تخصيص بعض الوقت لزيارة المكان الذي ستنتقل إليه.
- إذا كان الناس الذين يزاولون هذا العمل ميالين إلى مقاهٍ أو بارات بعينها، فإذهب إليها.
- تخيل أنك ممثل تستعد لأداء دور شخص يزاول هذا العمل. اقرأ ما يقرأه، واشتر ما يشتريه. وتخيل أنك تؤدي تلك الشخصية.
- كن موظفًا متدرّبًا هناك، حتى إن كان الأجر أقل من أجرك المعتاد.
- تلقّ دروسًا مسائية.

ك- قوة الموت التي تشحن المرء بالطاقة

في أوائل العصر الحديث، كانت الجمجمة وسامًا شائعًا في الدراسات التي يتلقاها الأشخاص المهمون. لم يكن المقصود بهذا التذكير المباشر بقصر الحياة وبعثية الأمر كله السعي إلى إحباط من يتلقون الأوسمة، بل كان المقصود به تشجيعهم للعثور على الأخطاء في جوانب بعينها في تجاربهم؛ مع منحهم، في الوقت نفسه، حق النظر الجاد في جوانب أخرى. إن لفكرة الموت قوة لا تضاهي لأنها قادرة على إخراجنا من كسلنا «الخالد» المعتاد بحيث تدفعنا إلى تركيز تفكيرنا على ما قد نكون راغبين حقًا في فعله.

إننا ننفق زمنًا طويلًا جدًّا في تخيل أنه سيكون لدينا دائمًا وقت كافٍ، في ما بعد، لتحديد تطلعاتنا الحقيقية. وقد يكون من المفيد أن «نخيف» أنفسنا قليلًا بينما لا يزال لدينا وقت. في كتابه «اعتراف» الصادر سنة 1882، يسجل ليو تولستوي الذعر النافع

الذي أثارته فكرة الموت في نفسه، ويحكي لنا كيف أدرك بعد أن صار في الحادية والخمسين، وبعد أن أنجز كتابيه «الحرب والسلام» و«أنا كارينينا»، وأصبح شخصًا ثريًا ذا شهرة عالمية، كيف أدرك منذ سن مبكرة أنه لم يعش بحسب قيمه الخاصة، ولا بحسب القيم التي يطلبها الرب، بل بحسب قيم «المجتمع». هذا ما بعث في نفسه رغبة شديدة في أن يكون أقوى من الآخرين وأكثر منهم شهرة وأهمية وثراء. في دائرته الاجتماعية كان «الطموح وحب السلطة والكبرياء والفسق والطمع والانتقام والغضب قيمًا محترمة». وأما بعد أن صارت فكرة الموت ماثلة في ذهنه، فقد بدأ يشك في سلامة تطلعاته السابقة. «لا بأس، سيكون لديك ستة آلاف أكر من الأرض في ولاية سامارا، وثلاثمئة حصان، وماذا بعد؟ وسوف تكون أوسع شهرة من غوغول وبوشكين وشكسبير ومولير ومن كل ما في العالم من كتاب... فما قيمة هذا؟ لا أستطيع أبدًا أن أعثر على إجابة».

لقد وجد في «الرب» إجابة عن أسئلته كلها. وسوف يمضي ما بقي من عمره في العيش وفق تعاليم يسوع المسيح. مهما يكن رأينا في هذا «الحل المسيحي» لأزمة المعنى عند تولستوي، فقد اتخذت رحلة الشك عنده مسارًا مألوفًا. هذا مثال على أن فكرة الموت يمكن أن تكون مفيدة في توجيهنا إلى أسلوب حياة أكثر صدقًا ومعنى؛ إنها دعوة مهيبة لنا كي نقرّر أولوياتنا.

يقول هيرودوتس، إنه كان لدى قدامى المصريين تقليد

يقضي بأن يدخل الخدم صالات المآدب ويتجولوا بين الناس حاملين هياكل عظمية على نقالات، وذلك في نهاية احتفالات العيد عندما يكون المحتفلون في ذروة سرورهم. وذلك أن أثر فكرة الموت قد يكون دافعاً لنا إلى التفكير في ما هو مهم كثيراً بالنسبة إلينا، سواء أكان الأمر احتفالاً عند ضفاف النيل، أم تأليف كتاب، أم جني ثروة. وفي الوقت نفسه، يمكن لهذا أن يشجعنا على تقليل الاهتمام بأحكام الآخرين الذين لن يستطيعوا - آخر المطاف - أن يموتوا بدلاً منا. فقد يشدنا التفكير في فنائنا صوب أسلوب في الحياة له قيمة كبيرة في قلوبنا. قد لا يكون هذا قسوة، بل يمكن حقاً أن يكون أمراً من ألطف الأمور أن ندخل إدراكنا القوي لفكرة الموت ضمن بحثنا عن عمل نستطيع أن نحبه.

تمرين

الخطوة الأولى

احسب عدد السنين التي يمكن أن تكون باقية من عمرك، وذلك احتكاماً إلى أمد الحياة المتوقع في منطقتك. عليك الآن أن تخيف نفسك بأن تققطع عشرين سنة من أجل احتمال الإصابة بالسرطان أو بنوبة قلبية (هذان هما أكبر قاتلين).

الغاية من هذا هي أن تثير في نفسك قلقاً مفيداً بناءً في شأن الزمن المحدود الباقي لك... وذلك حتى تقاوم ميلك إلى افتراض أن ما من سبب يدعو إلى السرعة في التعامل الجاد مع الأمور التي يحس المرء أنها مهمة في حياته.

الخطوة الثانية

إن لم تبق لديك غير سنة واحدة، فماذا تفعل؟ إذا كنت تريد أن تأخذ عطلة مدتها اثني عشر شهرًا، فما الذي يقوله هذا في شأن فكرتك عن العمل؟ هل تستطيع تخيل أنه إذا كان باقياً من عمرك سنة واحدة فقط فسوف ترغب في إنفاق الجزء الأكبر منها في العمل؟ كيف ينبغي أن يكون عملك حتى يصير لديك هذا الإحساس؟

تمرين

ما الذي تريد أن يقوله الناس عنك في جنازتك؟ سيقولون أمورًا لطيفة كثيرة، وأمورًا مؤثرة كثيرة، بالطبع، لكن عليك هنا أن تركز على ما تستطيع اعتباره إنجازات حقيقية... وبشكل خاص، تلك الأشياء التي قد يفكر الناس في ذكرها (أو قد لا يعلمون بها)، إلا إذا حرصت على أن تقولها لهم بنفسك. على سبيل المثال:

- كيف تغلّبت على قلقك واستطعت أن تبدأ بمفردك؟
- كيف تعلّمت أن تتلاءم مع من له سلطة عليك تلاؤمًا أفضل؟
- كيف تعلّمت أن تحسّ بأن الحياة ليست دائمًا «تجري في مكان آخر»؟
- كيف اكتشفت طريقة للدمج بين جانبك الإبداعي وعملك (أمر لم يبدُ لك أول الأمر أنك قادر عليه)؟

نتائج

أ - السعادة وتوقعات السعادة

لقد كان الهدف الكبير على امتداد هذا الكتاب كله التوصل إلى فهم مشروع «أن يكون المرء سعيدًا في عمله». وكما رأينا، فإن في هذا الهدف جوانب مركزية متصلة باكتشاف المزيد مما لدى المرء من تطلعات ومن طبائع شخصية، ثم المواءمة بينها وبين الإدراك السليم لحاجات عالم العمل. لكن علينا في أي تفكير في مفهوم السعادة أن ندخل في الحساب عنصرًا آخر: مسألة التوقعات. وذلك أن مقدار ما نستطيع تحقيقه من سعادة في أي سياق يظل معتمدًا اعتمادًا حاسمًا على ما نتوقعه من سعادة. فسعادتنا غير معتمدة على مدى سير الأمور فحسب، بل أيضًا على تناسبها مع ما تخيلنا أنه ممكن الحدوث.

ليست مواقفنا وآراؤنا الحديثة إزاء المسار المهني إلا تويجًا لتاريخ معقد طويل. قد لا ننتبه إلى هذا الأمر كثيرًا، لكن توقعاتنا في شأن العمل والكسب والمكانة بعيدة كل البعد عن أن تكون «طبيعية» أو أزلية. إنها نتاج شبكة معقدة من الأفكار المتعلقة بالقدرة على الحركة وبفرص النجاح التي شهدت تطوّرًا متدرجًا على مر القرون.

إن عشت في مدينة بريستول في إنكلترا العصور الوسطى (كانت آنذاك ميناء بحريًا نشطًا، لكنه صغير)، فمن المحتمل

كثيراً أن تكون جاهلاً بما هو جار في لندن أو باريس أو في البلاط الملكي في إسبانيا. فبكل بساطة، لم يكن يجري تداول الأنباء غير العاجلة. فمثلاً، لم يكن الناس يتداولون أنباء تقول إن سيدات البلاط يعجبهن أن تستخدمن كيساً شبكيًا لجمع الشعر، بحيث يكون متدليًا إلى جانب الوجه من هذه الجهة أو تلك، أو يعجبهن استخدام قفازات عليها أشكال نباتية مطرزة باللآلئ.

بلانش أوف لانكستر كانت زوجة جون أوف غونت ووالدة الملك هنري الرابع، وكانت أكثر النساء أناقة في إنكلترا القرن الرابع عشر. لكن ما كانت ترتديه لم يصبح «موضة» لأنه لا بد من وقت طويل جدًا كي يعرف الناس ماذا ترتدي من ملابس. قد تكون ابنة تاجر ثري في بريستول شديدة الاهتمام بالملابس، لكنها لا تستطيع أن تقارن نفسها بسيدات لندن من ذوات المنازل الرفيعة (مثل بلانش) لأنها لا تعرف شيئًا عما ترتديه تلك السيدات. وعلى أية حال، كانت بلانش كأنها منتمية إلى نوع آخر من البشر.

بعد ذلك، ظهر في شهر آب من سنة 1770 العدد الأول من مجلة «ذا ليديز ماغازين».

في كل شهر، كانت تظهر في المجلة رسوم تفصيلية لما ترتديه أرفع النساء مكانة، فصارت أنباء القبعات والفساتين ذات الخصور العالية تسري سريعًا في أرجاء المملكة. كانت المجلة تورد أيضًا أنباء النشاطات الاجتماعية عند الأثرياء وأصحاب المراكز العليا بأسلوب يجمع بين اليسر والحميمية يجعل القراء يحسون كأن تلك السيدات العظيمات صديقات لهن. فبفضل أسلوب تلك القصص، لم تعد الليدي بيدفورد اسمًا مجردًا، ولم تعد شخصية أرستقراطية مجهولة بعيدة عن

الناس كأنها من كائنات كوكب آخر. كانت امرأة أصغر منك
 يبضع سنين لها خصر جميل جداً وعينان رماديتان وفي يدها
 مروحة رشيقة من البندقية، سيدة حضرت منذ فترة وجيزة حفلاً
 أقيم في منزل ماركيز دورتشستر حيث قدمت إلى المدعوين
 فطيرة الرنجة وكتف الخروف بالزعتر وكانت العربات في
 انتظار المدعوين عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.



في سنة 1770، بدأت مجلة ليديز ماغازين، تنشر أنباء الأزياء على امتداد البلاد

مكتبة
 t.me/soramnqraa



London fashionable Walking Dresses.

صورة من «ليديز ماغازين»، 1812
 كان انتشار المعلومات عن حياة الطبقة العليا سبباً في زيادة عدم الرضا إزاء شروط
 الحياة العادية.

كان في وسع كل من يقرأ هذه الأنباء -على الأقل- أن يقارن بين ملابسه وصلاته الاجتماعية، وبين ما لدى الأثرياء وأصحاب العلاقات في لندن. من هنا، صارت لدى الناس فرصة عيش مشاعر جديدة بعض الشيء: إحساس الإنسان بأن الأزياء والمجتمع والعالم كله قد سبقوه. فقد يجلس المرء عند النافذة في قرية صغيرة في فينتشينغفيلد في إيسكس ويرقب تراكم الغيوم الرمادية الثقيلة عند الأفق عارفاً -للمرة الأولى في حياته- أن الحياة الحقيقية تجري في أماكن أخرى. حتى ذلك الوقت، وبطبيعة الحال، كان ممكناً أن «تسبقه» الحياة؛ لكن ذلك لا يكون إلا من خلال أشخاص يعرفهم، أشخاص يعيشون من حوله. فلعل أبناء عمومته لم يأخذوه معهم لجمع التوت البري، أو لعلّ قس القرية لم يدعه إلى عشاء أقامه. لكن المجلة صارت تقدّم نفسها بوصفها دليلاً موثقاً يتيح معرفة أين تُمضي كل سيدة راقية في البلاد أوقاتها وما ترتديه من ملابس... إلا من لا شأن لهم.

في حقيقة الأمر، لم تكن مجلة «ليديز ماغازين» صوتاً غير مجسّد ناطقاً بروح العصر يخاطب الناس من عليائه. لقد كانت مطبوعة غير مستقرّة يصدرها رجل اسم جون كوت انطلافاً من مكتب بسيط في شارع واتلينغ القريب من كاتدرائية القديس بول في لندن. إلا أن الصحف والمجلات قادرة على أن تبدو كأنها مصدر الحقيقة المطلقة عندما يقلّب المرء صفحاتها مغموماً وهو جالس في مقعده في بيت أهله في الريف الإنكليزي.

طفقت الصحافة الجديدة في القرن الثامن عشر تكشف لقطاع واسع من المجتمع عما في حياته من نواقص: يعلم المزارع الصغير من صحيفة «ذا سيكيتير» أنه ريفي أخرق؛ وتجعل صحيفة «ذا تاتلر» صغار النبلاء في نواحي البلاد يدركون أن أحاديثهم ريفية الطابع؛ وتذكر «ذا لندن ماغازين» تجار يورك بأنهم يمضون حياتهم في مدينة قليلة الشأن؛ وتدرِك الفتيات المراهقات من خلال «تاون آند كانترى ماغازين» أن أي عريس يأتيهنّ سيكون مفتقرًا إلى كثرة كبيرة من الصفات المتوقّرة لدى النماذج المثالية التي تقرأن عنها. لقد تضافرت عوامل كثيرة من بينها تقنيات الطباعة الحديثة واستخدام الأحبار الملونة ونظام الطرق الموثوق، وانخفاض تكاليف البريد، فأتاحت إمكانيات جديدة غير مألوفة لأن ينظر الناس نظرة ازدراء إلى أحوالهم.

لا تغزو قلوبنا مشاعر الحسد إزاء كل من يملك أكثر مما نملك. إننا نحسد من تعلمنا أن نقارن أنفسنا بهم... أي من نشعر، بطريقة من الطرق، بأننا أندادٌ لهم. في العالم القديم، لم يكن ممكنًا أن يجول في ذهن أي شخص عادي أن يحسد أرسقراطيًا أو ملكًا. فتلك الشخصيات الرفيعة تعيش في عالم آخر؛ وهي تفعل أمورًا كثيرة كي تجعل بقية الناس تدرك أنهم بشر مختلفون كثيرًا جدًّا، وأن من غير الممكن أبدًا تصور أن يصير أحدٌ مثلهم. ملابسهم، ومسلكهم، وأسلوب حياتهم، تجعل المرء يدرك أنه ليس له أبدًا اعتبارهم «بشرًا عاديين» بأي شكل من الأشكال.



آيا سينتي ريغو، بورتيه للملك لويس الرابع عشر، 1701

كان الملك لويس الرابع عشر في فرنسا (1638 - 1715)
يحب ارتداء عباءات من الفرو الثمين ومعاطف مطرزة بالذهب.

كان يحمل عصًا ذهبية. وبعض الأحيان، كان يرتدي درعًا. بالطبع، كان ذلك تكبرًا شديدًا ليس فيه شيء من الإنصاف، لكن له مزية كبيرة جدًا: لا يمكن لعقلك أبدًا تصديق أنك، أنت بكل ما فيك من «عادية» لا سموّ فيها، يمكن أن تتخيل بلوغ تلك القمة. لم تكن قادرًا على أن تحسد العظماء لأن الحسد لا يكون إلا انطلاقًا من احتمال نظري مفاده أن من «حق» المرء أن يحظى بما يراه لدى المحسود.

على النقيض من هذا، يقوم العالم الحديث على فكرة ظاهرة السخاء تقول إن للجميع حقوقًا متساوية، لا من حيث المكانة والأملك الحالية، بل من حيث الإمكانيّة. لا حدود لما يمكن أن يحققه أي واحد منا. قد يكون ما لديك اليوم من مال قليلًا؛ وقد تكون منزلتك الاجتماعية بسيطة؛ وقد تجد نفسك موضع ازدراء، لكن هذه كلّها مشكلات عابرة (يوحي إليك المجتمع بهذا). وذلك أن للعمل الجاد والموقف الإيجابي والأفكار النيرة فرصة حقيقية في إخراجك من مشكلاتك المستعصية يومًا من الأيام. المسألة كلّها مسألة إرادة. وثمة دائمًا قصص مشجعة يتداولها الناس، قصص عن أشخاص بذلوا الجهد اللازم: مثلاً، ذلك الشخص الذي تجوّل خمس سنين في طرقات أميركا الجنوبية من غير أن يفعل شيئًا مهمًا، ثم عاد إلى موطنه فأصلح حياته وأسس شركة صارت قيمتها الآن أكبر من ثروة بضعة بلدان فقيرة. وبغية تعزيز الإحساس بالمساواة، لا يرتدي ذلك الشخص ملابس شديدة الفخامة، بل

يبدو كأنه معلّم رياضيات، أو كأنه سائق التاكسي الذي أتى بك من المطار. لا تكف الحداثة أبدًا عن تشديدها على أن النجاح يمكن، بطريقة من الطرق، أن يكون من نصيبنا ذات يوم.

إلا أن في هذه الحكاية عن الممكنات الدائمة وعن أن الاستحقاق لا بد له أن ينال جزاء حسنًا في نهاية المطاف قسوة مرهقة، وإن تكن غير مقصودة. وذلك أن البيانات واضحة: لا تلقى النجاح إلا قلة صغيرة منا. ولا يزال المجتمع هرميًا جدًّا، ولا تزال القمة بالغة الضيق. فالأحلام التي تبثها عائلتنا في قلوبنا، وتبثها ذواتنا في شبابنا، لن يكاد يتحقق شيء منها (فهى بالتعريف أحلام). مع ذلك، وعلى الرغم من تلك الأدلة كلها، نجد صعوبة كبيرة جدًّا في قبول أن الحياة «الخائبة» هي المعيار العام.

وإن لم يكن هذا سيئًا إلى الحد الكافي، فإن من المخيف خاصّة أن يتأمل المرء في الفشل ضمن شروط يكون فيها هو المسؤول عن فشله. كان العالم القديم يعتبر الفشل أمرًا يحدث مصادفة، أو أمرًا واقعًا ضمن حيز «سوء الحظ»، أو قسمة قضت بها مشيئة إلهية لا سبيل لنا إلى إدراكها. وكان من هم في عداد الأكثر فقرًا في المجتمع يسمّون «عاثري الحظ»، أي إنهم بشر لم تشملهم ربة الحظ بنعمتها، تلك الربة التي توزع عطاياها من غير تبصّر ومن غير خطة معروفة. لم يكن ممكنًا أن يعزو الناس أية فضيلة أو استحقاق، أو أي خزي أو مهانة، إلى الموقع الذي يحتله المرء في العالم. وأما في العالم الحديث، فلم يعد الفشل يبدو حادثة عارضة، ولم يعد الفاشلون محلًّا طبيعيًّا

لعطف الأثرياء وإحسانهم، بل صار يبدو نتيجة مباشرة لإخفاق على المستوى الشخصي. ففي عصر قائم على الجدارة، عصر يرى أن الناجحين يصنعون حظهم بأنفسهم، صار اسمٌ أقل رفقاً يُطلق على أصحاب «الحظ العاثر»: الفاشلون. لقد صرنا الصانعين الوحيدين لمسارات حياتنا، فصار من حقنا أن نحظى بالمديح كله - وباللوم كله - نظير ما نصل إليه من نتائج. إذاً، ما من عجب في رؤية أن معدلات الانتحار قد زادت ازدياداً كبيراً جداً في العصر الحديث، فقد أضيف إلى رزية الفقر عبء نفسي حارق، عبء إحساس المرء بالعار.

لقد كان العالم القديم «لطيفاً» من حيث تشاؤم نظرتة. وكان واضحاً في كل مكان أن الحياة مرهقة ومحبطة من حيث طبيعتها نفسها، لا بمحض المصادفة، وأن السلوك الأكثر حكمة هو أن يتعلم المرء - منذ سن مبكرة - فلسفة الاستكانة والتخلي عن الآمال. فمهما يكن المرء بارعاً في استخدام منجله، أو مهما يعتني بحراثة حقله، من الواضح أنه لن يفلح أبداً في تغيير قسمته تغييراً جذرياً. لقد كتب سينيكا (4 ق.م. - 65 م.) الذي كان واحداً من أوسع الكتاب شهرة في الغرب قبل العصر الحديث: «أني حاجة بنا إلى البكاء على هذا الجزء من حياتنا أو ذاك؟ الحياة كلها مدعاة للبكاء». وكما قال الكاتب الفرنسي العبقري نيكولا شامفور (1741-1794) الذي أصابه الفقر واستبدت به المرارة: «على المرء أن يتلع ضفدعاً كل صباح حتى يكون على ثقة من أنه لن يلقى في يومه أي شيء أشد بشاعة».

آنذاك، كان لدى المتشائمين «عذوبة»، وكانوا يحاولون تحريرنا من عبء التطلع إلى ما هو أعلى منا. كانوا قادرين على رؤية أن ثمة قدرًا من القسوة اللامبالية كامناً - سرًا - في التأكيد السخي على أن في مقدور أي إنسان أن يجد الرضا في هذه الدنيا. وقد فهموا أن التطلع، حين يسيء الناس فهمه ويعتبرونه قاعدة، وحين يعتبرون الإخفاق حظًا عاثرًا ذا صفة فردية بدلًا من رؤيته وجهًا من وجوه الحياة لا يكاد يكون تفاديه ممكنًا، سوف يُثقل علينا كثيرًا كأنه لعنة أصابتنا من دون الناس جميعًا. فمن خلال إنكار الحيز الطبيعي المحفوظ للتوق وللكارثة في قدر الإنسان، تنكر علينا إيديولوجيا الأمل في العالم الحديث فرصة «العزاء الجمعي» عندما تفشل علاقاتنا أو عندما تخيب طموحاتنا الوليدة ومساراتنا المهنية، بل إنها تحكم علينا بمشاعر الوحدة والاضطهاد لأننا فشلنا في تحقيق آمال وتطلعات لعلها لم تكن «طبيعية» أصلًا.

في الحالة المثلى، تقتصر مخيلة البشرية على توليد طموحات تقع ضمن ما هو ممكن من الناحية العملية. هكذا لا نكون حالمين «مدمنين» إلا أن المبالغة طبع أصيل في أحلامنا؛ فالأحلام لا تتمهّل من أجل تقدير صائب لقدراتنا الشخصية لمدى «ترحيب» العالم الخارجي بما لدينا من خطط لأنفسنا. لقد حبّسنا الطبيعة بقدرات على «توليد» الأحلام مفيدة لجنسنا عامة، لكنها قد لا تثمر ما فيه مصلحتنا من حيث نحن أفراد. ومثلما تقفز أسماك السلمون صاعدة مساقط المياه كي تعود

إلى حيث بدأت حياتها، فإن فينا دوافع ملحة (إلى النجاح - إلى الفوز، إلى السيادة) لا تأبه كثيراً لما عندنا من قدرة شخصية على تحقيقها. لا تبالي الطبيعة إن كنا غير قادرين على كتابة هذه المقطوعة الموسيقية أو تلك، أو غير قادرين على إطلاق فكرة أعمال ناجحة؛ فدوافعنا مستقلة عما لدينا من قدرات ومواهب يمكن أن تنجح في تحقيق أحلامنا أو أن تفشل في ذلك. سمكة سلمون واحدة من كل ألف ينتهي بها الأمر إلى النجاح في الوصول إلى أرض التكاثر!



أورستس تطارده «شياطين» الأسف والندم: صورة متطرفة لتجارب الحياة العادية

أنتج التفاؤل في العالم الحديث زيادة كبيرة في فرص السعادة، لكنه وسّع أيضاً دائرة الذعر ونزعة الكمال الخائبة. لقد نقل مساحات كثيرة جداً من ميدان الإبداع البشري من

دائرة الأمور المحكوم عليها (على الأرجح) بأن تفشل فشلًا كبيرًا إلى دائرة الأمور التي يمكن أن تكون تامة النجاح، بل التي ينبغي أن تكون كذلك. لقد جعل ذلك التفاؤل «المثالي» معيارًا عامًا وحوّل عبء الفشل إلى عبء ذاتي.

تضع الحداثة أمامنا خيارات لا آخر لها، لكنها تنسى الأساس المأساوي الذي هو أننا لا نفهم أنفسنا - على الإطلاق - فهمًا كافيًا ولا نفهم العالم فهمًا كافيًا كي نستطيع أن نقدم على خيارات سليمة إلى حد يصح الاتكال عليه. نحن مفتقرون إلى ما يلزمنا من خبرات ومعلومات، لكن علينا أن نتخذ قرارات ستكون لها تبعات هائلة على حياتنا وعلى حياة غيرنا أيضًا. كان الكتاب التراجيديون الإغريق شديدي الميل إلى هذه الفكرة. وكانوا يرون أن مفتاح التعامل معه هو الإقرار بأن ما من سبيل، تقريبًا إلى تفادي الأسف والندم. لقد أظهروا ولعًا خاصًا بقصة حياة أوديب. ففي واحدة من رحلات ذلك الشاب الطموح الموهوب، استوقفه أشخاص حسبهم من قطاع الطرق فانقضّ على زعيمهم وقتله. ما لم يعرفه أحد ذلك الوقت هو أن الرجل الذي قُتل كان، في واقع الأمر، والد أوديب نفسه. بطبيعة الحال، لم يكن لشيء من ذلك أن يحصل لو كان الأمر واضحًا منذ البداية. ما أعجب الإغريق إعجابًا خاصًا في هذه القصة هو أن أوديب لم يكن مخطئًا في شيء، فالذنب ليس ذنبه. لكنه اكتشف حقيقة ما فعله بعد حين من الزمن، فسقط - بالطبع - في لجة الحزن والإحساس بالذنب.

إن سماع هذه القصة مفيد لنا، أكثر الأحيان، وذلك لأن ما يعيننا على احتمال الندم والأسف هو إدراكنا أن كل حياة لا بد أن تكون مفعمة بهما على هذا النحو أو ذاك. لا وجود لحياة «خالية من الأحزان» إلا في الأغاني. وما من سبيل أمامنا إلى إنقاص ما نحسّه من أسف إلا التخفف من فكرة أن المرء كان في وسعه أن يختار اختيارًا صائبًا، لكنه أخفق. فخبية الأمل هي «الشرط البشري» وإن كانت الحداثة غير راغبة في الاعتراف بهذا. علينا ألا نبالغ في القسوة على أنفسنا، وذلك بالنظر إلى أننا نعيش في ظل الرأسمالية. فمن حيث التجربة البشرية، هذا أسلوب جديد شديد التعقيد في تنظيم الحياة. يعرف الاقتصاديون الرأسمالية بطرق «فنية» إلى حد كبير: تعني الرأسمالية المنافسة بين الشركات بغية الوصول إلى الأموال الاستثمارية؛ وهي تعني أن الطلب يتمتع بقدر كبير من الحركية، إذ ينتقل المستهلكون من مزود إلى آخر بحثًا عن صفقات أفضل؛ والرأسمالية منطوية على تمسك شديد بالابتكار والتحديث، وتجري فيها معركة دائمة من أجل تزويد الجمهور بمنتجات أفضل وأكثر جودة، لكن بأسعار أدنى. من هذه الناحية، تُدخل الرأسمالية إلى حياة الناس أمورًا حسنة كثيرة. لقد أنتجت سيارات رائعة مثيرة، وسندويتشات لذيدة، وفنادق ساحرة على جزر نائية، وحضانات أطفال متميزة بالجمال واللفظ. لكن ما يشير الحزن هو أنها أوجدت أيضًا مواطنين لديهم سوية استثنائية من التوتر والقلق.

كي نستطيع مواجهة مشكلاتنا بذهن متّسم بقدر أكبر من الهدوء والسكينة، علينا أن نعترف بما في مسألة اكتشاف ما ينبغي أن نفعله من شرف وتعقيد أصيلين. فبدلاً من مشاركتنا العصر الرومانسي، ما كان لديه من إيمان بالأحاسيس الحدسية، ينبغي أن نقرّ بحقيقة مسألة اكتشاف ما ينبغي فعله - أو ما نفعله - في الخطوة التالية: مهمة من أشد ما يمكن أن نواجهه تعقيداً وإرهاقاً وصعوبة. ينبغي أن يكون أمراً طبيعياً أن نكرّس لهذه المسألة قدرًا كبيراً جدًّا من نشاطنا الذهني. وينبغي أيضاً توقع أن نجد أنفسنا، في بعض الأحيان، في حاجة إلى قدر كبير من العون الخارجي. في أحيانٍ أخرى، قد نجد أنفسنا في حاجة إلى تخصيص أسبوع كي نبتعد عن كل شيء، وعن كل إنسان، كي نتيح لأنفسنا فترة من التفكير المنعزل المتحرّر من عبء «مهمة» إدخال السرور إلى قلب أي شخص غيرنا (أو من عبء تعمّد إزعاجه).

إن اهتداءنا إلى ما نفعله في حاجة إلى بذل هذا الجهد كلّهُ، وهذا الزمن كلّهُ، لا لأننا أغبياء أو متساهلون مع أنفسنا، بل لأن القرار يقوم على نُتف معلومات وأدلة بعيدة كل البعد عن أن تكون وافية أو كاملة. وذلك لأن أجزاء مشوّشة من المعلومات تكون متناثرة على امتداد تجربتنا كلها. فما هي نقاط القوة لدى المرء؟ ثمة لحظات من الضجر، ومن الحماسة، ومن أشياء اعتدنا التلاؤم معها، ومن أشياء حيرتنا حيناً من الزمن ثم تجاهلناها: لا بد من وضع كل شيء من تلك الأشياء في موضعه،

ومن فك ألغازه، ومن تفسيره وإعادة تكوينه. علينا أن نوازن بين اهتمامات ومصالح متضاربة. ما مقدار المخاطر التي يستطيع المرء احتمالها من غير أن يبلغ به التوتر أقصاه؟ وكم هو مهم بالنسبة إلينا أن نشعر بأن البشر الآخرين، في الأحوال العادية، يحترمون ما نفعله؟ يعني العثور على إجابات صحيحة عن هذه الأسئلة من أجل التوصل إلى سوية رفيعة من معرفة الذات.

إن من بين أحسن أنواع الخبرات التي يطورها الناس عندما يصيرون كتابًا تلك القدرة على «التسامح» إزاء المسودة الأولى التي تكون فظيعة... وإزاء المسودتين الثانية والثالثة، بل ربما مسودات كثيرة تليها. ففي نظر المبتدئ، يبدو علامة على العجز وضعف القدرة أن يُنتج نسخة أولى مفتقرة افتقارًا شديدًا إلى ما نتوقع رؤيته في عمل أدبي جيد. ثمة توقع بأنه ينبغي لهذا الأمر أن يكون عملاً سهلاً، نسبيًا، أن ننشئ بضع فقرات مقبولة. لكن ثمة فكرة مؤلمة (على أنها مفيدة جدًا) وهي أن فعل ذلك أمر شديد الصعوبة في واقع الأمر. تتدفق أفكار المرء من ذهنه تدفقًا مشوشًا مضطربًا. ويختفي ما تريد قوله خلف فكرة مألوفة يعرفها الجميع. لا تتوصل أبدًا إلى معرفة كيف تجعل الصلة بين فكرتين اثنتين واضحة. ولا تستطيع -حتى الآن- أن تقرّر ما ينبغي أن يأتي أولاً، وما يصح أن يكون موضعه بعد ذلك. قد يضطرّ الكاتب إلى إعادة صوغ المادة عشر مرات، أو عشرين مرة، قبل أن يتمكن من فهم ما يحاول قوله فعلاً. بكل بساطة، هذا ما يواجهه الكاتب عندما يحاول فك تشابكات أفكاره.

لا نمارس كلنا كتابة الروايات؛ لكن كثرة المسودات تخبرنا شيئاً عن طريقة اشتغال العقل عامة. عندما نحاول فهم أنفسنا، سوف تكون هناك عمليات معقدة، صعبة، تستغرق زمناً طويلاً، عمليات مشتملة على تغييرات كثيرة وحذف أمور كثيرة وإعادة ترتيب مواضع الأفكار.

ثم إن على القرارات المصيرية الكبرى التي نحاول اتخاذها في شأن اختيار مسارنا المهني، أو في شأن تطوره، أن تُتخذ في ظل شروط غير مواتية لا نستطيع تجنبها. فنحن في ضيق من وقتنا أكثر الأحيان؛ وكثيراً ما يكون ما نعلمه عن الخيارات المتاحة لنا غير كافٍ. فنحن، في آخر المطاف، نحاول أن نصف شخصاً لا نستطيع معرفته معرفة تامة - إنه ذاتنا في لحظة من اللحظات في المستقبل - ونحاول أن نخمن بأفضل ما نستطيع ما يمكن أن يكون حسناً بالنسبة إلى ذلك الشخص. سوف تتغير الأحوال؛ وسوف تعلق قطاعات جديدة وتهبط قطاعات أخرى. لكننا سنكون قد كوّننا عددًا من المهارات واكتسبنا علاقات اجتماعية متميزة، وصرنا أفضل استعداداً من أجل مستقبل لا نعرف عنه الآن إلا ما نتخيله تخيلاً.

عادة ما نكون مطلعين على أحوال أشخاص في المجال العام ممن أظهروا مهارة غير مألوفة في إظهار مواهبهم والسير خلف طموحاتهم وتطلعاتهم. وبالضرورة، يكون أكثر ما نسمعه متركّزاً على أولئك الناس من دون غيرهم، مع إنهم نادرون جداً (وبالتالي، هم ليسوا أساساً منطقيًا أو مفيدًا لأغراض المقارنة).

سيكون أكثر فائدة لنا أن نسمع عن مجموعات مختلفة عن الشخصيات النموذجية التي تكشف لنا نمطًا آخر أكثر عمومية: أشخاص يتعلقون بفرضيات خاطئة، ويقدمون على انعطافات غير صحيحة، ويحرصون على البعد عن أمور يتبين في وقت لاحق أنها كانت أفضل الخيارات الممكنة، ويلتزمون متحمسين بمسارات لا يلبث أن يتضح لهم أنها مسارات كارثية.

إن حال الناس عامة حال محزنة إلى حد غير قليل. فمن شبه المؤكد أننا سنموت تاركين قدرًا كبيرًا من قدراتنا غير متحقق. وكثيرًا مما استطعنا فعله سيظل مجهولًا. ومن الممكن جدًا أن يصل المرء إلى قبره ولا تزال تلك الأجزاء من نفسه تتوسل الاعتراف بها، أو أن يظل حاملًا إحساسًا بالفشل لأن ثمة الكثير مما لم يفلح في إنجازه. لكن هذا ليس بالسبب الذي يدعو إلى الإحساس بالعار، بل ينبغي أن يكون واحدًا من أهم الأمور التي نعترف بها أمام أنفسنا وأمام الآخرين: إنه القدر المشترك الذي نواجهه جميعًا. هذا محزن جدًا. لكنه ليس حزنًا فرديًا خاصًا بهذا الشخص أو ذاك. بل إن ثمة فكرة مأساوية تحمل قدرة غريبة على مواساتنا، ألا وهي فكرة أن المخيلة أوسع من القدرات، بل أوسع كثيرًا. لا يصل أحد إلى إشباعها كلها؛ وهذه نتيجة من نتائج الطريقة الغريبة التي تطوّرت بها عقولنا.

كانت الغاية من هذه الجولة المطولة لاستطلاع جذور تجربة الإنسان في العصر الحديث إعادة تكوين «تجربة العمل» لدينا، وذلك خاصة بغية تذكير أنفسنا بكم كانت كبيرة - من الوجهة

التاريخية - آمالنا وأحلامنا في شأن العمل. نحن ورثة تطلّعات كبيرة جدًّا. وقد حدث هذا لأسباب نبيلة تمامًا. لكن تطلّعاتنا منطوية أيضًا على أثر جانبي خطير. فهي تعني أن من الممكن أن ينتهي الأمر بنا إلى الإحساس بالخيبة حتى في ظل شروط جيّدة جدًّا من الناحية الموضوعية. وإذا استطعنا استبطان هذا الوضع التاريخي، فسوف يكون قادرًا على مساعدتنا في «تلطيف» آمالنا وجعلها تتخذ وجهة واقعية أكثر. ليست الغاية أن نشيع الإحباط في نفوسنا (هكذا نفسر عادة أي «تخفيض» لآمالنا)، بل هي غاية أكبر كثيرًا: أن نجعل أنفسنا تحسّ قدرًا أكبر من البهجة والرضا.

ب- التعاطف مع الذات

حتى نستطيع أن نعيش في العالم الحديث، ينبغي أن تكون لدينا قدرة جيدة على انتقاد أنفسنا. نحرص على عدم بقاء شيء يستطيع أعداؤنا القول لنا إننا لم ندخله في حسابنا: نصير خبراء في فن كره الذات. نتقن التعامل مع قلة تميّزنا من غير مبالغة في العواطف، ونسمح للفصام بأن يتغلّب على اليسر وعلى الرضا عن النفس. لكن، ومهما بلغنا من مهارة في أداء هذه المناورات، يظل «نصرنا» واقعيًا تحت خطر تجاوز غاياته. فاستجابة منا لهذه النكسة المهنية أو تلك، من الممكن أن يصل بنا الأمر حد ازدراء أنفسنا ازدراء شديدًا يمكن أن ينتهي به المطاف إلى جعلنا نجد صعوبة حتى في النهوض من الفراش. ومن الممكن، بعض الأحيان، أن يصل ذلك بنا إلى نتيجة مفادها أنه قد يكون من الأفضل أن نضع حدًا لحياتنا.

بغية تمكين أنفسنا من تلطيف هذه الاحتمال، علينا - من وقت إلى وقت - أن نتفحص الحالة الانفعالية التي يظهر فيها لدى الطموحين مِثْل مفهوم إلى الإحساس بذعر كبير: إنها حالة التعاطف مع الذات. قد يبدو «لطفنا» مع أنفسنا أشبه بدعوة إلى التساهل معها، وإلى استجلاب الكوارث، وذلك بالنظر إلى أننا نكثر من الربط بين النجاح وبين القلق وجلد الذات. لكن، وبما أن للاتحار «جوانبه الإشكالية»، فعلينا أن نقبل بقيمة لحظات محسوبة من الرفق بأنفسنا.

فإلى حين، إلى أن نصير أقوى، علينا أن نتحلّى بشجاعة كافية لأن نتبنى نظرة إلى أنفسنا تكون أكثر كرمًا. لعلنا فشلنا، لكن ذلك الفشل لم يجعلنا نتخلّى عن كل قدرة على العطف، وعلى التعاطف مع أنفسنا. لم نُهزم لمجرد أننا «أغبياء» أو «ضعفاء» بل أيضًا:

1 - لأن الظروف كانت ضدنا

ما أسهل أن نقع في حب النجاح وقوعًا طائشًا فنفشل في رؤية مدى كبر التحديات التي وضعناها لأنفسنا. من غير أن نقصد ذلك، نجد أنفسنا متورطين في «ظاهرة اليانصيب».

اليانصيب موجود في بلدان كثيرة في عالمنا الحديث. وفي كل أسبوع، يشارك فيه ملايين الناس أملًا في الحصول على ثروة كبيرة. والأمر المفاجئ هو أن الناس الأكثر حرمانًا هم الأكثر حماسة لليانصيب، أكثر الأحيان. لا مشكلة أبدًا في فهم ما يجعلهم يفهمون الإحصائيات فهمًا خاطئًا: لو أدركوا حقًا

كم هي ضئيلة فرصهم بالفوز لما اهتموا بالأمر أبدًا. لا تتجاوز فرصة ربح الجائزة الكبرى في اليانصيب نسبة واحد إلى أربعة عشر مليونًا (هذا قريب من نسبة احتمال أن يكون المرء واحدًا من أبناء ملكة بريطانيا، فهذه النسبة تعادل الآن واحدًا من خمسة عشر مليونًا). من الطبيعي أن نشعر بقدر من الأسف على الناس الذين «يستثمرون» في آمال واهية إلى هذا الحد. إنهم كمن يسدّد صوب هدف صغير إلى حد يجعل إصابته مستحيلة.

لكننا لا نلاحظ أننا، نحن أنفسنا، نفعل ما يشبه ذلك كثيرًا. فنحن «نتشبّث» ببطاقات يانصيب من مختلف الأنواع ونضع نصب أعيننا أمورًا تكاد تكون معجزات من الناحية الإحصائية، وذلك على الرغم من أننا لا ندرك أننا نفعل هذا. إن آمالنا في العثور على السعادة في العمل لمن المواضيع المهمة التي يحدث فيها هذا الأمر.

قليلون جدًّا (إن وجدوا) أولئك الذين يصادفون نجاحًا حقيقيًّا على امتداد حياة العمل كلها. فإذا حللنا صورة مسار مهني متسم بنجاح مثالي فقد نجد شيئًا على النحو التالي: شخص يعثر في وقت مبكر على مجال العمل الصحيح فيلتحق به ويكتشف فرصًا مهمة جديدة ويستثمرها، ويُجري مفاوضات من أجل عقود رائعة، ويمضي من إنجاز رفيع إلى إنجاز رفيع آخر، ثم ينعطف انعطافًا ماهرًا صوب ميادين جديدة يكتشفها في اللحظة المناسبة، ويحظى بتقدير وتشريف عامين نظير ما يبذل من جهود، ثم يتقاعد شاعرًا بأنه قد أنجز ما كان قد وضعه

نصب عينيه. يستمتع بشيخوخة محترمة، ويحظى بإعجاب أبنائه وأحفاده، ويضفي أحياناً لمسة توجيهية على مجريات الأمور من حوله كأنه «مُشرف خارجي». (يموت موتاً هادئاً من غير ألم بعد تجاوز التسعين من العمر في غرفة كلها زهور من حوله، وذلك بعد أن يكتب وصية سخية حكيمة).

ليست نسبة احتمال وجود هذا السيناريو بأكبر من احتمال الفوز بجائزة اليانصيب. لكننا قد نحمل أوهاماً كبيرة شأن في نسخة معدلة منه (هذا مفاجئ لأنه يحدث على الرغم مما حظينا به من تعليم، وعلى الرغم من طبيعتنا التي تبدو، في ظاهرها، طبيعة عملية واقعية): نحن أيضاً نعتقد بأن هذا ما يمكن لمسار مهني جيد أن يكون عليه. لا نرى أننا نجافي المنطق إلى حد غير معقول عندما نأمل في أن يحدث لنا ما يشبه هذا. لا ندرك حقاً مقدار ما تتسم به قصص النجاح من ندرة وغرابة فائقتين. ثمة «أماكن» قليلة جداً في المراتب العليا في كبرى الشركات، وقلة صغيرة جداً من رواد الأعمال الذين يحققون نجاحاً كبيراً؛ ومن النادر أن يحظى فنان بنجاح تجاري، وأن يفلح أحد في كسب العيش من كتابة الروايات. إن القلة الصغيرة جداً التي تنجح في هذه الأمور تدفع تكاليف داخلية باهظة: علاقات وزيجات لا بد من التضحية بها، وصدقات تتحطّم، ومستويات عالية من القلق الذي يستمر فترات طويلة... إنهم يقدمون على مخاطرات ضخمة لا يكادون يخرجون منها سالمين. يعملون ساعات طويلة جداً؛ وتستبد بهم، بعض الأحيان، حالات

جنونية من الخوف والقنوط. قد نكون معجبين بالإنجازات التي كانت ثمرة مساراتهم المهنية، لكن من الصعب كثيرًا أن نستطيع أن نحسداهم على تلك الحياة التي يعيشونها.

تجد أدمغتنا - تلك «الكُرات» المَعْبِية التي تُوَدِّي وظيفة التفكير عندنا - صعوبة في فهم الإحصاءات والاحتمالات. نتخيّل أن ثمة أمورًا شائعة الحدوث أكثر كثيرًا مما هو في حقيقة الأمر. ونميل إلى افتراض أن أفراد الواحد بالمئة الأعلى دخلًا يعيشون حياة رفاهية لا تُصدّق، ويتجولون بطائراتهم الخاصة في أنحاء العالم كله. ولكن، يبلغ متوسط ما يكسبه الفرد من الواحد بالمئة الأعلى دخلًا في فرنسا زهاء مئتي ألف يورو في السنة الواحدة. هذا كثير، لكنه لا يكفي لشراء أكثر من طرف جناح طائرة «سيسنا هيمسفير» التي يبلغ ثمنها ثلاثين مليون دولار أميركي. يسهل علينا افتراض أن كثرة من الناس لديهم بطون مشدودة؛ لكن حقيقة الأمر هي أن هذا أمر نادر جدًا. ففي أستراليا، على سبيل المثال، لا تزيد نسبة أصحاب الأجساد الرشيقة (بين الراشدين) على اثنين بالمئة. وعندما يبلغ المرء أواسط العمر، يصير أمرًا شديد الغرابة أن يظل جسمه غير مترهّل. وفي المملكة المتحدة، يحس نحو نصف السكان قلقًا في شأن المال كل يوم تقريبًا؛ ويشعر ثلاثون بالمئة من السكان أن لا أحد يحبهم. لكن من النادر أن تظل أذهاننا منتبهة إلى هذا النوع من الحقائق عندما نفكر في حياتنا. بدلًا من ذلك، نغدو متأثرين بصور وقصص تُعرض أمامنا دائمًا. فمن غير أية نية

خبيثة، تواصل وسائل الإعلام لفت انتباهنا إلى تلك «الغرائب» لأن هذا ما نحب سماعه ورؤيته ولأننا ندفع لها مالا لقاء ذلك. من هنا، نحسّ كأننا نعيش في عالم مختلف عن هذا العالم الذي نحن فيه بالفعل. من المرجح أن تكون في المجتمع الذي نتخيله أعداد أكبر من القتلة ومن الكلاب المسعورة وأسماك القرش التي تأكل البشر، وكذلك أعداد أكبر من البشر الجميلين السعداء ومن المناسبات والاحتفالات الباهرة... ستتخيل أن ذلك كله أكثر كثيرًا مما هو موجود في العالم الحقيقي. وبطبيعة الحال، نعتقد بأن الناجحين في العالم أكثر مما هم في الحقيقة. إن «خريطتنا الذهنية» لما يمكن، أو يُحتمل أن تحققه مساراتنا المهنية من نجاح، أو مقدار «طبيعية» ذلك أو إمكانية حدوثه، منزاحة إلى الأعلى انزياحًا غير مقصود. بالتالي، يكون إحساسنا بالإشباع والرضا إزاء عملنا أو مسارنا المهني أقل مما ينبغي له، ومما يحق له، أن يكون.

إن البيانات والمعلومات التي تتوارد إلى أذهاننا منزاحة، أو «منحازة» إلى حد كبير. لو استطعنا أن نرى حقًا كيف يعيش غيرنا من الناس، وكيف يعملون، لكان من المحتمل كثيرًا أن تنشأ لدينا رؤية مختلفة أشد الاختلاف في شأن منجزاتنا وفي شأن «الموقع» الذي أحرزناه لأنفسنا في العالم. لو استطعنا أن نظير هنا وهناك فنلقي نظرة على حياة كل إنسان وعلى ما يجول في ذهنه كأننا ملائكة قادرة على رؤية كل شيء، فسوف نرى كثرة ما في العالم من إحباطات وخيبات. سنرى كثرة

الطموحات التي لم يستطع أصحابها الوصول إليها، وسرى ما تضمه دخيلة كل إنسان من ريبة وتشوش، وكم من دموع ومجادلات متوترة بين الناس. عندها، تتكوّن لدينا صورة للواقع مختلفة اختلافاً جذرياً لكنها أكثر دقة بقدر كبير جداً. يظل ما نستطيع الإقرار به من حقيقتنا «مُلطّفة» كثيراً إن هي قورنت بما نحن عليه فعلاً. سرى أن البشر الذين يصلون إلى النجاح قلة صغيرة جداً؛ وسرى أن مستويات التوتر التي ترافق ما نراه من نجاحهم عالية جداً. وسندرك أن الأهداف التي نضعها لأنفسنا أهداف غير طبيعية (من الناحية الإحصائية).

وسوف يكون هذا درساً مؤلماً من بعض النواحي. قد تصيبنا صدمة؛ وقد يحزننا ما نراه. وبالطبع، سنحس إحباطاً عندما نخلص إلى أنه ما من احتمال معقول تقريباً إلى أن نحرز ما نأمل في إحرازه. لكن هذا سيكون -من ناحية أخرى- تجربة تريحنا وتطمئننا لأنها ستخلق لدينا مشاعر أكثر تفهّماً ورقة إزاء أنفسنا التي لم «تکسب جائزة اليانصيب». بدلاً من التركيز على قلة قليلة جداً لا تكاد تمثل شيئاً، ستألف أذهاننا المجرى الطبيعي الذي تميل إليه الأمور عادة.

صحيح أننا لسنا ساذجين كثيراً، لكن من المرجح أن أفكارنا في شأن ما يُحتمل وقوعه لنا كانت قاصرة وكانت محدودة جداً. لدينا آمال تكافئ الأمل بالفوز بجائزة «يورو ميليونز» أو «باور بول جاك بوت». نحن لا نستحق الانتقاد على هذا، بل نستحق لمسة شفقة وحنان (آتية من ذواتنا) بالنظر إلى هول العقبات

التي تعترض سبيل ذلك النوع من النجاح المهني الذي نتمنى أن نحققه لكن من المستبعد جدًا أن يكون من نصيبنا. ستبدو حياة عملنا «غير الكاملة» أقل إيذاءً لنا وأقل إثارة للحزن والكرب عندما ننظر إليها - كما ينبغي أن ننظر - مقارنة باللوحة الإحصائية الواقعية.

2 - لأننا مجانين

من غير نية «ازدراء» في الذهن، ولمجرد أن كل إنسان هكذا وأن كل إنسان لا يستطيع إلا أن يكون هكذا، نحن كلنا مجانين. نحن مجانين لأننا لا نعرف أن نتصرّف بطريقة منطقية إلا في أوقات متباعدة؛ ولا نعرف كيف نستجيب للأوضاع المتغيرة إلا من خلال نظرة مشوّهة آتية من طفولتنا نصف المنسية - طفولتنا التي هي مضطربة دائمًا - فنفسل في فهم أنفسنا وفهم الآخرين فهمًا سليمًا ونفقد سيطرتنا على ما لدينا من احتياطي محدود من الصبر والتوازن. نحن لا نستطيع تجنب شيء من هذا.

الفكرة المسيحية عن الخطيئة الأصلية تؤكد على أن كل ما يفعله البشر يكون، بالضرورة وعلى الدوام ناقصًا. فقد ارتكب أبونا - آدم وحواء - خطيئة أَلقت بظلالها على تاريخ البشر كلّه. لسنا في حاجة إلى الإيمان بهذه الفكرة حتى ندرك ما لها من أثر مواس شافٍ: لا تتخذ حياتنا مجرى خاطئًا نتيجة «غلطة» وقعنا فيها، بل نتيجة خلل أساسي عميق في بني جنسنا جميعًا... وصمة ملازمة للإنسان لا سبيل إلى إزالتها.

ونحن نحمل جنوننا معنا - لا محالة - في مسارنا المهني.

يعني هذا أننا محكومون بأن نتسرّع فتتخذ قرارات تنتهي إلى نتائج سيئة. وسوف يستبد بنا غضب على أشخاص لا يستحقون ذلك. وسوف نهتاج عندما ينبغي أن نكون هادئين، ونتوتر عندما ينبغي أن نكون واثقين. ثم ينتهي بنا الأمر إلى مخاصمة أشخاص مع الأفضل لنا أن نراعيهم، ويصينا كسل شديد في لحظات تتطلب منا أن نركز قوانا. لن يحدث لنا هذا طيلة الوقت، لكنه يحدث بالقدر الكافي لأن يبدد فرصنا ويضمن عدم نجاحنا في أن نختط لأنفسنا سبيل العمل الأمثل. لن تزول هذه المثالب منا مهما قسونا في لوم أنفسنا لأنها ليست ناتجة عن «خطأ نرتكبه في الآونة الأخيرة» ونستطيع تصحيحه. إنها جزء لا يتجزأ من طبيعتنا البشرية المعطوبة... إنها «كمية حماقة» التي تكون من نصيبنا لمجرد أننا وُلدنا، لمجرد أننا بشر.

3 - لأن الفشل، على الدوام، هو النتيجة الأكثر احتمالاً

إن «المأزق» العام أمر حزين في جوهره، لكننا نظل مصرّين على أن نحسّ عارًا خاصًا بنا إزاء ما يجدر به أن يكون واحدة من الحقائق الأساسية من حقائق الشرط البشري، حقيقة تلقى اعترافًا جماعيًا: البشر يفشلون كثيرًا.

على امتداد زمن طويل، ظلّت مجتمعاتنا مصرّة إصرارًا عاطفيًا فظًا على ما هو عكس ذلك: إصرار على أن في استطاعتنا جميعًا أن نفوز، وعلى أننا جميعًا سنفوز. نسمع عن الصمود، ومقاومة الصعاب، وعدم الاستسلام أبدًا، والمحاولة من جديد. لم تكن المجتمعات كلها، ولا العصور كلها، عديمة

الرحمة هكذا. ففي بلاد الإغريق القديمة، كانوا قادرين على رؤية احتمال مهم صار الآن احتمالاً غريباً عن عقولنا كمثل غرابة السفينة الإغريقية القديمة بالنسبة إلى زماننا: قد تكون جيداً جداً، لكنك تفضل على الرغم من كل شيء. كي تبقى هذه الفكرة دائمة الحضور في المخيلة الجمعية، نشأ لدى الإغريق القدامى فن المسرح التراجيدي. ففي مهرجانات ضخمة تقام كل سنة في كبرى مدنها، كان المواطنون جميعاً مدعويين إلى سماع قصص عن إخفاقات مفزعة، مروّعة أكثر الأحيان. بشر خالفوا قانوناً ثانوياً، أو اتخذوا قراراً متسرّعاً، أو ضاجعوا من لا يجوز أن يضاجعوه - من غير أن يدروا - فنزلت بهم عقوبة ومهانة غير متناسبين مع ما فعلوه. إلا أن المسؤولية كانت بعيدة كل البعد عن أن تكون واقعة على أولئك الأبطال التراجيديين وحدهم: إنها من عمل ما كان الإغريق يدعونه «قدراً»، أو من كانوا يدعونه «أرباباً» - طريقة شاعرية في التأكيد على أن المصائر لا تعكس بالضرورة فضائل الأفراد المعنيين أو «نقائصهم»-. كان مرجوًّا أن نخرج من المسرح ممثلين «حكمة أخلاقية» سهلة المنال، وتعاطفاً مع الضحايا، وخوفاً على أنفسنا.

تعاني الأزمنة الحديثة مشكلة أكبر في تعاملها مع هذا كله: تبدو غير قادرة على قبول أن شخصاً جيداً حقاً يمكن ألا ينجح. إذا فشل واحد من الناس، فالظاهر أن من الأسهل على زماننا الاقتناع بأنه - في نهاية المطاف - لم يكن جيداً من هذه الناحية

أو تلك. لكن هذه النتيجة تحجب عنا فكرة أكثر صحة، لكنها لا تحظى برواج كبير مع أنها أشد إثارة للقلق: العالم ظالم جدًا. نحن جميعًا واقفون على حافة المأساة لأننا في مجتمعات غير راغبة في أن تقدم إلينا «مسرحيات» متعاطفة معنا كي تروي لنا حكايتنا.

4 - لأننا نخطئ اختيار الناس الذين نحسداهم

صرنا نحسد بعض الناس لأنهم بدو لنا شديدي الشبه بنا، ولأننا أحسنا رغبة طاغية في أن نكون مثلهم. إحساسنا بالمساواة الأساسية بين الناس أطلق في نفوسنا عذابات التنافس. لكن، ومع أن أولئك الناس يبدو لنا -من بعيد- شخصيات ناجحة نراها شديدة الشبه بنا، فمن الواضح أن لديهم (تحت السطح الظاهري) جملة مهارات ليست موجودة عندنا: قد تكون لديهم عقول استثنائية ماهرة في «تركيب» مقادير كبيرة من المعلومات بطرق عبقرية. أو قد يكون لديهم استعداد لأن يعملوا ثماني عشرة ساعة كل يوم، أو أن لديهم ميولاً جارفة لسنا قادرين على مضاهاتها، أو لسنا راغبين في ذلك. لا يجوز للفكرة التي تسكننا - لماذا هم، وليس نحن؟ أن تواصل دفعنا إلى تعذيب أنفسنا وإلى البقاء في قبضة ذلك الذعر التنافسي، بل ينبغي أن تشجعنا على الإعجاب بهم، وإن يكن ذلك شعورًا غير مألوف كثيرًا.

ففي حقيقة الأمر، من الممكن أن تكون هناك اختلافات مهمة بيننا وبين من نحسداهم. قد نكون غير مساوين لهم أبدًا.

فتفسير وضعنا الحالي بالمقارنة بهم لا يمكن أن يكون مقتصرًا على الكسل أو على «قوة غاشمة»، مهما تكن تلك القوة. عندما ننظر إلى الأمر نظرة مجردة من العاطفة، نجد أن هناك أمورًا ليست في مستطاعنا. علينا أن نكون مراقبين معجبين (لا خصومًا مُحبطين) بتلك الكائنات غير العادية أبدًا التي استطاعت الوصول إلى إنجازات عظيمة.

5 - لأن الصورة التي لدينا عن «العالم الكبير» غير صحيحة يشهد نطاق هذه المواهب أو تلك، وما يقدمه العالم مقابلًا لها، تغيرًا كبيرًا جدًا بتغير الزمن. نحن كائنات من صنع الظروف المحيطة بنا. فالوجهة التي تتخذها مساراتنا المهنية غير معتمدة على قوة ما لدينا من قدرات، أو على عمق تلك القدرات فحسب، بل على ما يمكن أن ندعوه -تعميمًا- الحقبة التي يمر بها العالم. في الحالة المثلى، يفلح المرء في إطلاق مواهبه واهتماماته ضمن «موجة مواتية» من موجات الاقتصاد. تخيل أنك معماري ذو قدرة رفيعة على تصميم الكنائس، وأنت تعيش في المملكة المتحدة في القرن التاسع عشر (أي حين عاشت المملكة المتحدة زمنًا طويلًا من إنفاق شديد السخاء على بناء الكنائس التابعة للمذاهب المسيحية المختلفة)؛ أو تخيل أنك ممثل ناجح قصد هوليوود سنة 1926؛ أو أنك مستثمر يدخل قطاع الصناعة النفطية سنة 1953، أو قطاع المناجم في أستراليا سنة 2001، أو رائد أعمال متوسط الطموح يدخل ميدان التكنولوجيا سنة 1997 (ثم يخرج منه خروجًا ناجحًا سنة

1999). كانت هذه أوقاتاً رائعة من أجل تلك الأعمال مع أن آفاقها كلها لم تلبث أن صارت أضيق كثيراً. ليس المقصود بهذا أن ما من عمل أبداً في هذه القطاعات في يومنا هذا، لكن الفرص باتت نادرة، وصارت المنافسة ضارية.

عندما يدخل المرء مساراً مهنيًا، يكون عليه ألا يقصر تفكيره على السؤال الشخصي وحده، أي على تحديد قدراته ونقاط قوته. ذلك أن ثمة مسألة أخرى مختلفة تمام الاختلاف: ما مدى موثاقاة المناخ السائد الآن. لا مفر من احتمال وقوعنا تحت رحمة العاصفة. وقد يكون أولئك الذين نجحوا في تحديد التوجه الملائم في الوقت الملائم أشخاصًا محظوظين فحسب... غالبًا ما يكونون غير مبالين إلى الإقرار بحقيقة الأمر (وهذا ما يمكن فهمه).

6 - لأننا نقع ضحية سياسات مكان العمل

حتى إذا كنا في عالم نجده جيدًا لنا في جوهره، فنحن معرّضون دائمًا لرحمة الظروف من حيث ما قد يعجب زملائنا أو لا يعجبهم. ومن الممكن دائمًا أن توجد إمكانية حقيقية جدًا لأن نجد أنفسنا مع مديرين غير جيدين، أو زملاء غيورين، أو عملاء يسببون لنا مشكلات. ليس من المصادفة في شيء أن نواجه عقبات من هذا النوع تعترض سبيل رضانا وارتياحنا في العمل، فبكل بساطة، هذا أمر ناتج عن حقيقة مؤلمة تشمل الناس عامة. يأتي الأفراد إلى حياة العمل بمشكلات كثيرة. قد يكونون شديدي الحماسة في إعطاء التعليمات؛ وقد يكونون

ممن يجعلهم نجاح الآخرين يحسّون قدرًا من قلة الأمان؛ وقد يكونون راغبين في الهيمنة في الاجتماعات؛ وقد يكونون أشخاصًا مخادعين يحاولون إيذاءنا من خلف ظهورنا؛ وقد يكونون ممن لديهم نزوع قوي إلى إلقاء المسؤولية على الآخرين. الأمر المحزن هو أن من المستبعد أن نستطيع العثور على عمل لا يحدث فيه هذا كله، وذلك لأن هذا ليس عيبًا مقتصرًا على مجموعة أشخاص، أو على أماكن عمل بعينها، بل هو انعكاس للطبيعة البشرية. تعني استحالة تجنب «سياسات مكان العمل» أن ما من عمل يُحتمل أن يحقق لنا تحقيقًا مثاليًا ما نريد له أن يكون.

7 - لأننا مُتعبون كثيرًا

يبدو أمرًا مألوفًا أن نعزو أسوأ مخاوفنا إلى حقائق وأفكار ذات أساس متين. نصادف لحظة نحس فيها بأن لا شيء في عملنا يسير على ما يرام. ونحن «مُدْرَبون» على أن نظن أنه لا بد من وجود سبب مهم لما نعانیه من مشكلات: لدينا رؤية خاطئة إلى احتياجات العمل، أو لدينا نقص في القدرات العقلية، أو أننا رمينا أنفسنا في مسار مهني غير مناسب لنا. لكن التفسير الحقيقي لما يجعلنا نحس بهذا الإحباط كله وهذا العجز كله قد يكون أننا لم نفطر جيدًا أو أننا لم ننم جيدًا. من الممكن أن تكون قد مرت علينا عدة أيام مدلهمة الغيوم، فصرنا في شوق إلى ضياء الشمس. أو لعلنا حدّقنا في الشاشة زمنًا طويلًا أكثر مما ينبغي. أو لعل المكتب صار في حاجة إلى تهوية. نتخيل أن علينا أن نبحث عن حلول جذرية: مواجهة مع واحد من زملائنا، أو

صدام كبير مع واحد من الموردين، أو خطاب استقالة مقتضب، أو ستة أشهر نمضيها في جولة على الأقدام في جبال الأنديز. في حقيقة الأمر، ما يلزمنا حقًا ليس أكثر من أن ننام في وقت مبكر، أو أن نشرب كأسًا من الماء، أو أن نخرج في جولة من حول المبنى، أو أن نضع مروحة صغيرة على طاولة المكتب.

نحس بأن أمورًا من هذا القبيل ليست مألوفة في مكان العمل. لكن هذه الأفكار كثيرًا ما تأتينا في مجالات أخرى من مجالات حياتنا. عندما تنتاب طفل رضيع نوبات عنيفة من الغضب أو البكاء، يعرف الأهل أن لا معنى لمحاولة إقناعه بالعدول عن ذلك. فمن الممكن جدًا أن يكون الحل كامنًا في جعل الطفل ينام علّه يحظى بليلة طويلة هانئة. علينا أن نجعل من أنفسنا «حراسًا» للطفل الغاضب في داخلنا، فهو ليس وحشًا نائرًا بل ضحية اختلال بسيط من حيث راحته الجسدية.

التعاطف مع الذات أمر مختلف عن القول إننا بريئون. فهو يعني محاولتنا أن نكون شديدي التفهم لمجموعة الأسباب التي تجعل الناس يفشلون. ارتكبنا حماقة - لا شك في هذا - لكننا نستحق الوجود ونستحق أن يُسمع صوتنا وأن نحظى بقدر من الصفح على الرغم من كل شيء.

جـ - لماذا لا يمكن أبدًا لعمل واحد أن يكون كافيًا يُراد لنا أن نظل ملتزمين بعملنا، لكن من الممكن جدًا، في أي أسبوع من الأسابيع، أن نمضي لحظات غير قليلة في أحلام

يقظة عن أعمال بديلة. من الممكن أن نتلقى أجرًا كي ندرس الضرائب المدفوعة في ثلاث مناطق مختلفة، أو كي نقيم الجدوى التجارية لبيع طلاء الأظافر في بولندا، أو كي نساعد مجموعة تلامذة في الرابعة عشرة في إتقان حل المعادلات التربيعية. لكن جزءًا من ذهننا سينشغل بضع لحظات في التفكير في المسرات التي يمكن أن تنطوي عليها مهمة إنارة منتجع للتزلج، أو العمل في البحوث الطبية أو إدارة مكتب سفريات. إنه ميل عارض كثيرًا ما يشوش على التزامنا بوظيفتنا الراهنة.

لا يعني هذا أن لدينا قلة إخلاص من نوع غير مألوف، فنحن لا نفعل أكثر من ممارسة سمة قائمة في أساس الشرط البشري: نملك حقًا مواهب وقدرات في ميادين أخرى أكثر عددًا من أن تسنح لنا فرصة استكشافها. وسوف تذهب معنا إلى قبر أجزاء كبيرة من «شخصياتنا العاملة» من غير أن تظهر للعيان؛ ولهذا فهي تحاول أن تعبر عن أنفسها وتُسمعنا صوتها المحتج قبل أن ينتهي العمر.

نصير قادرين على فهم أصول ما بنا من قلق وقلة استقرار إذا عدنا بالذاكرة إلى أيام الطفولة. كنا أطفالًا، وكان مسموحًا لنا أن نفعل أمورًا كثيرة. ففي صبيحة يوم من أيام السبت، كان في وسعنا أن نرتدي كتزة إضافية ونتخيل أننا ذاهبون في رحلة استكشافية في الدائرة القطبية الشمالية. وبعد ذلك، كنا قادرين على أن «نكلّف» أنفسنا بمهمات صغيرة من قبيل الانكباب على تصميم معماري لبيت مبني من مكعبات اللعب، أو التحول

إلى نجم من نجوم البوب يبتكر أغنية عن الكورنفلكس، أو مخترعًا عاكفًا على ابتداع طريقة جديدة للتلوين السريع من خلال استخدام أربعة أقلام تلوين معًا. وقد نمضي بضع دقائق في شخصية واحد من أفراد فريق إسعاف، ثم نحاول أداء دور طيار يهبط بطائرة شحن هبوطًا بارعًا فوق سجادة بالمرمر. نمثل عملية إنقاذ يكون موضوعها دمية صغيرة على هيئة أرنب؛ ونجد آخر الأمر وظيفة لنا إذ نؤدي دور مساعد الطاهي عندما تُعدّ لنا أمنا سندويتشًا باللحم والجبن.

كان ممكنًا لكل واحدة من هذه «الألعاب» أن تصير بداية مسار مهني. لكننا اضطررنا إلى الاستقرار على خيار واحد فقط وإلى أدائه يومًا بعد يوم طيلة خمسين عامًا. نحن أكثر وأوسع كثيرًا مما يتيح لنا عالم العمل أن نكون. في قصيدة «أغنية عن نفسي» المنشورة سنة 1881، قدم الشاعر الأميركي وولت وايتمان تعبيرًا خالداً عن هذه التعددية الموجودة فينا: «أنا ضخم، وفي داخلي كثرة متنوعة». يعني الشاعر بهذا أن لكل إنسان نسخًا حقيقية مهمة جذابة كثيرة؛ وثمة طرق كثيرة جدًا يمكن للمرء أن يعيش ويعمل بموجبها. لكن قلة صغيرة من تلك الاحتمالات تجد طريقها إلى الظهور وتصير حقيقية ضمن مجرى هذه الحياة الواحدة التي ليس لنا غيرها. فلا عجب إن كنا منتبهين دائمًا (انتباهًا صامتًا مؤلمًا) إلى أقدارنا التي لم تتحقق، فنذكر بعض الأحيان - وويتابنا إحساس مشروع بالألم - أننا كنا بالفعل قادرين على أن نكون شيئًا آخر، أو شخصًا آخر.

ليس ذنبنا أننا غير قادرين على التعبير عن «الكثرة التي فينا». فسوق العمل في الزمن الحديث لا تمنحنا خيارًا غير أن نتخصّص في أمر من الأمور. لا يستطيع المرء أن يكون طيارًا بعد ظهر يوم من أيام الأسبوع، وأن يعالج الأشجار المريضة يومين في الشهر، وأن يكتب الأغاني في الأمسيات، في حين يتولى وظائف بوقت عمل جزئي فيصير مستشارًا سياسيًا وسبّاكًا ومصمم أزياء ومدرب تنس ووكيل سفريات، وأن يكون فوق ذلك كله صاحب مطعم صغير يقدم مازات لبنانية... مع هذه التركيبة يمكن أن تكون التركيبة الأمثل القادرة على تغطية ذلك النطاق الواسع مما لدينا من اهتمامات وقدرات.

كان الفيلسوف الاسكتلندي آدم سميث (1723 - 1790) أول من قدّم شرحًا مسهبًا للأسباب التي تجعلنا غير قادرين على ذلك. ففي كتابه «ثروة الأمم» (1776)، بيّن سميث كيف يؤدي ما أطلق عليه «تقسيم العمل» إلى زيادة كبيرة جدًا في الإنتاجية الجمعية. ففي مجتمع يعمل فيه كل إنسان كل شيء، لا يتم إنتاج أكثر من كمية صغيرة من الأحذية والبيوت والمسامير والقمح وسروج الجياد وعجلات العربات، ولا يكون أحد صاحب مهارة متميزة في أي شيء. وأما عندما يتخصّص الناس بحيث يعمل كل منهم في ميدان واحد صغير (صنع المسامير أو تشكيل الأوتاد أو تصنيع الحبال أو شيءٍ الآخر، إلخ)، فسوف تشهد سرعة كل واحد زيادة كبيرة، فضلًا عن إتقانه ما يعمله؛ وسوف تتحقّق زيادة جمعية كبيرة جدًا في الإنتاج. فمن خلال

تركيز جهودنا، نخسر ما في التنوع من متعة، لكن مجتمعنا يصير (بمجمله) أكثر ثراءً وأفضل إمدادًا بالسلع اللازمة له. لقد استطاع سميث رؤية أن الأمر سيصل بنا إلى مسميات وظيفية من قبيل: «مصمم التغليف والأسماء التجارية»، «طبيب القبول وتصنيف الخطورة»، «مدير مركز دراسات»، «مراقب المخاطر والتدقيق المالي الداخلي»، «استشاري سياسات النقل» - بكلمات أخرى، يصير الجميع أجزاء صغيرة جدًا في آلة عملاقة رفيعة الأداء، وتزيد ثروتهم، لكنهم يظلون ممتلئين «شوقًا خاصًا» إلى التعبير عن ذواتهم المتعددة.

تقود حقيقة أننا جميعًا لا نوّدي إلا أجزاء صغيرة من العمل الذي يمكن أن يناسب طباعنا إلى أسلوب جديد في قياس مستوى البطالة. فمهما يكن ما نعمله الآن، يشتمل كل منا على ما لا يقل عن تسع «ذوات أخرى قابلة للعمل»، لكنها تظل متنحية جانبًا وتظل بعيدة عن سوق العمل المأجور. فعلى نحو غير مألوف، لكنه حقيقي جدًا، تكون إحصاءات البطالة الرسمية مضللة إلى حد بعيد، وتكون أقل كثيرًا مما هي في الواقع. فهي لا تدخل في حسابها ذلك التنوع الكبير من الأعمال التي يمكن - من حيث المبدأ - أن يؤديها كل واحد منا. إن في سوق العمل في المملكة المتحدة قرابة ثلاثة وثلاثين مليون إنسان من بينهم 1,69 مليون من المسجلين رسميًا على أنهم عاطلون عن العمل، وذلك وقت تأليف هذا الكتاب. يعني هذا أن نسبة العاطلين عن العمل تبلغ 5,5 بالمئة. وأما إذا نظرنا إلى

الأمر انطلاقًا من تعدد الأعمال التي يستطيع كل شخص القيام بها فسوف نجد أن في المملكة المتحدة زهاء ثلاثة وثلاثين مليون «ذات عاملة» محتملة تبحث كل واحدة منها عن الرضا والإشباع في عملها. من هنا، لدينا أكثر من تسعين بالمئة من «قدرة العمل الجمعية» التي هي عاطلة عن العمل.

مقارنة بلعب الأطفال، نرى أننا نعيش حياة مُقيّدة على نحو قاتل. وما من علاج سهل لهذا الأمر. فكما قال آدم سميث، الأسباب ليست كامنة في أخطاء شخصية يقع فيها هذا الفرد منا أو ذلك: إنها الحدود التي يفرضها علينا «المنطق الأكبر»، منطق الإنتاجية واقتصاد السوق التنافسية. لكننا قادرون على أن نسمح لأنفسنا بالحزن لأن ثمة جوانب كبيرة من طبائعنا ستظل دائمًا غير مشبعة وغير ملباة. لسنا سخفاء، ولسنا جاحدين، عندما ننتبه إلى الصدام بين مطالب سوق العمل وبين المدى الواسع للقدرات الموجودة في كل حياة بشرية. ثمة قدر من الكآبة في هذه الفكرة. لكنها أيضًا تذكرة لنا بأن نقص الإشباع هذا سوف يظل مرافقًا لنا مهما فعلنا. لا سبيل إلى شفائه عن طريق التنقل من عمل إلى آخر. إنه «حزن وجودي» ناتج عن هذه الحقبة من التاريخ التي شاءت المصادفة أن نعيشها.

كما يقع كثيرًا، ثمة هنا نوع من التوازي بين تجربتنا في ما يتصل بالعمل وبين ما يحدث في العلاقات العاطفية. أليست حقيقة غريبة، بالنظر إلى كثرة ما في العالم من بشر، أن نكون قادرين (من غير أن يكون الشريك الحالي ملومًا في أي شيء)

على أن تكون لنا علاقات رائعة مع عشرات الأشخاص المختلفين، بل ربما مع مئات الأشخاص. سوف يُظهر كل واحد من أولئك الأشخاص (أو كل واحدة) جوانب مختلفة من شخصيتنا، ويهجننا (ويحزننا) بطرق مختلفة، ويُعرّفنا على أشكال جديدة مما يثير حماسنا. مع هذا - وكما نرى في العمل - يأتي «التخصّص» بمزايا واضحة، فهو يعني أننا نستطيع تركيز عواطفنا وتنشئة أطفالنا ضمن بيئة مستقرة وتعلّم فضائل التسويات.

ففي الحب وفي العمل، تقتضي الحياة أن نصير «متخصّصين»، حتى إن كنا (بطبيعتنا) ملائمين من أجل مجال واسع من الاستكشاف. بالتالي، سوف نحمل معنا دائماً - في صورة جنينية - نسخاً مغرية كثيرة من أنفسنا لن يُقيّض لها أن تحظى بفرصة حقيقية في الحياة. هذه فكرة كئيبة، لكنها فكرة مواسية أيضاً. معاناتنا مؤلمة، لكنّ فيها نوعاً غريباً من «الشرف» لأنها لا تقتصر على أن تصيب الواحد منا من حيث هو فرد. هي حقيقة سارية على مدير تنفيذي في شركة كبرى بقدر ما هي سارية على طالب متمرّن أو فنان أو محاسب. فقد كان من الممكن لكل واحد منهم أن يعثر على نسخ كثيرة من السعادة، لكنها «تملّصت» منه وتفلّتت من بين يديه. عندما نعاني بهذه الطريقة، فنحن نشارك في القسمة البشرية العامة. من الممكن أن نعمد - بشيء من الكبرياء الحزين - إلى حذف محرّك البحث عن الوظائف من قائمة المواقع المفضلة في جهاز الكمبيوتر الذي لدينا، وإلى إلغاء اشتراكنا في موقع

المواعدة إقرارًا منا بحقيقة أن ثمة أجزاء من «مُقدّراتنا» لن تتطوّر مهما فعلنا، بل ستموت من غير أن تحظى بفرصة بلوغ نضجها التام، وذلك في سبيل ما يأتي به التركيز العاطفي والتخصّص في العمل من منافع جمّة.

د - الوقوع في الحبّ من جديد

صحيح أننا لا نستخدم هذا التعبير عادة، لكن من الممكن تمامًا - بل من الشائع، في حقيقة الأمر - أن نقع في غرام عمل من الأعمال. يشبه هذا وقوعنا في غرام واحد من الناس. نرى ذلك الشخص في مكان من الأماكن (أو يمكن أن نلمحه مرة في مقهى، أو في مطار) فنقول في أنفسنا: قد أستطيع أن أكون سعيدًا مع هذا الشخص! تسريحة شعره، وهذا الحذاء الذي في قدميه، وتكوين وجنتيه، وطريقته الخاصة في الابتسام أو في الوقوف... تكوّن هذه الأمور الصغيرة رؤيةً مفرحة لسعادة مشتركة. إذا كنا مرتبطين في الوقت الحاضر، فمن المحتمل كثيرًا أن يجعلنا هذا الغرام المفاجئ نحس بأن شريكنا الحالي (أو شريكتنا) ليس كل ما يمكن أن يكون. فلعل من الأفضل لنا أن نتركه كي نبحث عن شخص جديد، شخص يستهويننا أكثر، كي نكون معه. إننا نجري مقارنة غير منصفة بين شخص عرفناه وصرنا «ضجرين» منه قليلًا، وبين هذا الشخص الجديد الذي يبدو لنا ساحرًا، شديد الجاذبية.

في آخر المطاف، تعلّمنا تجاربنا ألا نضع ثقتنا في أحلام اليقظة الساحرة هذه. لكن من الممكن جدًّا أن يكون علينا

أن نقع في عدد غير قليل من الأخطاء قبل أن نتعلم الدرس: نستكشف أن ذلك الحذاء الجميل لا يعبر، في واقع الأمر، عن شخصية متوازنة هادئة، وأن تسريحة الشعر لم تكن علامة واضحة على الذكاء الوقاد ولا على الطبع الظريف، وأن الشخص ذا الابتسامة الحلوة يمكن أيضًا أن يكون متهكمًا أو قاسيًا في لحظات بالغة الأهمية. بكلمات أخرى، نتعلم شيئًا فشيئًا أنه مهما بدا لنا شخص من الأشخاص جذابًا أو مغربيًا من حيث مظهره الخارجي، فسوف تكون لديه تلك السوية الشائعة من الخصال المزعجة المخيبة للآمال (تمامًا مثلما هي موجودة لدينا).

نجد أمرًا مماثلًا في ميدان العمل. تثير حماسة كبيرة في أنفسنا فكرة عمل آخر. وتظهر لدينا حساسية حادة إزاء مؤشرات خارجية ووصف موجز لذلك العمل. فثمة شركة لديها مكاتب فاخرة أكثر مما هو مألوف (أرضيات لامعة، وجدران من الآجر، وزجاجات مياه إيفيان). تلاحظ أن من يعملون في ميدان العمارة يضعون نظارة جميلة، ويلفت نظرك شخص تلتقيه في حفل يقول لك إنه يعمل مع جمعية خيرية تُعنى بالأمور الطبية في جزيرة فانواتو جنوب المحيط الهادي، حيث يتولى إدارة اللوجستيات. أو تعلم أن صديقًا واحدًا من أصدقائك قد أسس شركة تعمل في مواد القرطاسية الفاخرة، والظاهر أنه عثر على سوق جيدة. إن «نقاط البدء» هذه كافية لأن تُطلق عملية الوقوع في غرام عمل من الأعمال. نبدأ ببناء

صورة خيالية نرى فيها كم يكون كل شيء رائعًا إذا فعلنا تلك الأمور التي يفعلها غيرنا، فيصير كل ما نفعله الآن يبدو لنا خاليًا من أية إثارة، ويبدو عاجزًا عن جذب اهتمامنا إن قورن بما نراه في تلك الصورة الذهنية التي تكوّنت لدينا عن تلك الأعمال الأخرى. يظهر لدينا نفور من زملائنا الذين هم «غير لامعين»، أو من حجرات مكان عملنا الرمادية، أو من حقيقة أن ما من أحد تبدو عليه علائم الحسد عندما نخبره عن عملنا، أو عندما نقول له إننا لا نزال نعمل لدى أشخاص آخرين، ولم نبدأ بعد عملاً نكون فيه سادة أنفسنا. كنا نظن بأن عملنا يعجبنا فعلاً، لكنّ غرامًا شديدًا بعمل مختلف يمكن أن يجعلنا نرى أنفسنا مخطئين تمامًا في ذلك الظن.

على أن الواقع (المزعج) هو أن لكل عمل مشكلاته. كل ما في الأمر هو أننا لم نتوصل بعد إلى تكوين صورة واضحة عن الجوانب المرهقة أو المزعجة أو المقلقة في العمل الذي وقعنا الآن في غرامه. فلو استطعنا متابعة ذلك العمل شهرًا أو شهرين لأدركنا ذلك كله. تلك المكاتب الجميلة ملك شركة تتّبع سياسات إخلاء بالغة القسوة إذ يكفيهم أن يتلقوا ملاحظتين سلبيتين في حقك كي يطرّدوك. وفي تلك الشركة، حبس أحدهم نفسه في الحمام الأسبوع الماضي، وانفجر باكياً. وأما مدير اللوجستيات الطبية فهو الآن في قنوط شديد لأن عليه أن يتعامل مع مشكلات لا سبيل إلى حلها. إنه ينفق قسمًا كبيرًا من وقته في التفاوض على الرشى التي لا بد له من تقديمها وفي

محاولة تقليل سرقة المواد. يستيقظ ذلك الذي يتعامل بأنواع الورق الفاخرة في الثالثة صباحًا للتفكير في كيفية العثور على طريقة تخلصه من مشكلات السيولة المالية. ثم إن أولئك الذين يضعون نظارات جميلة جدًا يقولون أمورًا قبيحة عن زملائهم، لكن من خلف ظهورهم. نكون متبهين كثيرًا إلى ما في عملنا من مشكلات لأننا نمارسه. لكن الأعمال الأخرى تبدو شديدة الإغراء لأننا لا نرى إلا الجوانب الإيجابية فيها. فوق هذا، نصير عُميًا عما هو لطيف حقًا في عملنا الحالي... ننسى الأمور التي جذبتنا إليه في الأصل. تغيب محاسن عملك عن ناظريك، ولا يظل واضحًا لك غير ما فيه من بؤس. وأما العمل الذي وقعت في غرامه، فإن جوانبه الجذابة كلها لا تزال نضرة غير مألوفة، ولا تزال تجد نفسك مشدودًا إليها. لذا، فالمسألة ليست، في الحقيقة، أن العمل الآخر أحسن كثيرًا، لكن المقارنة الجارية بين العاملين غير منصفة أبدًا في حق العمل الذي تزاوله الآن. بدلًا من أن يجعلنا الوقوع في غرام عمل مُتخيل نشعر بالحزن، علينا أحيانًا أن نستكشف فرص تعلم كيف نقع من جديد في حب العمل الذي لا بأس فيه أبدًا، العمل الذي لدينا الآن. إن في وسعنا أن نباشر عملية «إعادة التقييم». يبدو هذا أمرًا غريبًا، لكن من المرجح أننا مررنا بعمليات إعادة تقييم في ما مضى. وهذا موضوع رئيسي في ميدان الفنون.

كانت الحقول جميلة قبل أن يبدأ مونه رسمها. إلا أن الزراعة ليست مهنة شديدة التآلق؛ وليس أمرًا مفاجئًا أن يكون

معاصرو مونييه قد نسوا كيف يمكن أن يبدو حقل من الحقول التي في الريف، وكم يمكن أن يكون جذابًا. لعلهم أحبوا -عندما كانوا أطفالًا- أن يسيروا عبر الأعشاب الطويلة، لكنهم كبروا فصارت الحقول في أذهانهم أكثر ارتباطًا بالطين أو بصباحات الشتاء الباردة أو بعدم إمكانية الاعتماد على خدمات القطارات الذاهبة من المدينة إلى الريف. ما يفعله مونييه هو أنه يمنحنا فرصة جديدة لإلقاء نظرة ثانية على جمال الحقول... على حيوية الألوان وحلاوة الضباب الأزرق في الأفق وجمال مظهر الأزهار بين سنابل القمح. هكذا نصير متصلين من جديد بمواضع السحر التي هي موجودة دائمًا لكننا اعتدنا أن نغفل عن رؤيتها.



كلود مونييه، «شقائق النعمان في حقل القمح»، بلدة جيفرني (1890)
لقد أضفى مونييه ألقًا جديدًا على موضوع شائع جدًا

من الممكن أن يظهر لنا هذا النوع نفسه من عملية «إعادة التعارف» الإيجابية، وذلك في ميدان العلاقات. بعد أن يمضي اثنان من الناس معًا زمنًا يطول بضع سنين، فقد يصير ما يجذب كل منهما إلى الآخر أمرًا معتادًا، وهذا ما يجعله موضع تجاهل؛ وقد يصير كل واحد من الاثنين «خبيرًا ممتازًا» في كل ما لدى الآخر من أمور تثير الغيظ أو الانزعاج. لكننا نحظى أحيانًا بفرصة لأن نعكس هذه العملية. قد ننظر إلى صورة من زمن بدايات تعارفنا فتذكرنا الصورة بما في الآخر من أمور لطيفة كانت شديدة الجاذبية في البداية. ننتبه من جديد إلى تلك الابتسامة الخجول، أو إلى ذلك المظهر اللطيف، أو إلى جاذبية المعصمين الظاهرين من تحت كمّي كنزة الكشمير. أو قد نسافر بضعة أيام لحضور اجتماع من أجل العمل، ثم نعود فنجد الآخر منتظرًا في المطار. عندها، تكون الرحلة قد منحتنا فرصة للـ«البعث النفسي» كافية لأن نُعجب بالشريك من جديد. أو قد نسمع أن واحدًا من معارفنا العابرين أظهر ميلًا شديدًا نحو شريكنا (أو شريكتنا) لأنه يراه ساحرًا شديد الجاذبية. من الممكن عند ذلك أن نكتشف اكتشافًا مهمًا، وإن رافقه قدر من الانزعاج: عبر عين هذا المنافس المحتمل، نرى من جديد ما يمكن أن نخسره.

بكلمات أخرى، نحن كائنات قابلة للتغيّر والتكيف. وذلك أن «ضياح السحر» شارغ ذو اتجاهين. نستطيع أحيانًا أن نعكس الاتجاه. ونحن قادرون على إلقاء نظرة ثانية أكثر دقة. وفي ما

يخص عملنا، نستطيع أن نقوم بنقلة تشبه ما فعله مونييه. ليته كان ممكنًا أن نأتي بفنان عظيم كي يمعن النظر في يوم عملنا فيلتقط منه ما هو جميل جذاب ويجعلنا نراه! عندها، نستطيع أن نشترى صورة تلك اللوحة مطبوعةً على بطاقة بريدية نثبتها فوق طاولة العمل. وأما إذا لم نستطع الإتيان بذلك الفنان، فنحن قادرون على أن نجري تلك العملية بأنفسنا.

يمكننا تخيل أن هناك من يُجري معنا مقابلة عن مسارنا المهني وأنه يسألنا: ما أفضل ثلاثة أمور في العمل الحالي؟ فماذا تكون الإجابة؟ بالطبع، لن تكون إجابة مفاجئة. إلا أنها ستعيد توجيه انتباهنا إلى الإيجابيات الحقيقية الموجودة في عملنا، تلك الإيجابيات التي لا تحتل موقع الصدارة في أذهاننا من يوم إلى يوم. أو لنفترض أن مجلة تجري تحقيقًا مصورًا في مكان عملنا يضم معلومات من شأنها أن تجعل هذا العمل يبدو مهمًا، أو مثيرًا: ما الأمور التي ينبغي التقاط صور لها؟ يشبه هذا ما يقوم به سمسار عقارات عندما يلتقط لبيت من البيوت صورًا تفاجئ مالكي البيت كثيرًا وتجعلهم يحسون بأنهم نسوا ما هو لطيف أو جذاب في هذا المكان الذي هو ملك لهم لكنهم عازمون الآن (لعله قرار غبي) على تركه.

إن في مقدورنا تعليم أنفسنا كيف نقع من جديد - إلى حد ما - في حب عملنا الحالي. لن يكون هذا الحب الجديد افتتانًا. لن يكون مثلما كان عندما وقعنا في الحب أول مرة ورأينا أن شخصًا (أو عملاً) سيكون مثاليًا من أجلنا. سيكون الحب

الجديد حبًا أكثر نضجًا، لكنه يظل حقيقيًا. سيكون حبًا يدرك النواقص والعيوب ويدرك مواضع الصعوبات والتنازلات والتسويات، لكنه يبقى محتفظًا بدفء حقيقي ويبقى محتفظًا بأهمية المزايا الموجودة حقًا. يشبه هذا ما يكون في علاقة بين شخصين عندما يبدأ كل منهما النظر إلى الآخر نظرة أكثر حصافة وإدراكًا بعد سنين من المشاحنات وخيبات الأمل. يعلم كل منهما أن هذا مختلف عما كان يحلم به أول الأمر، لكنه يصير قادرًا على رؤية أن الشخص الآخر متعاطف معه كثيرًا، وعلى إدراك أنه راغب حقًا في كل ما هو أفضل بالنسبة إليهما معًا. قد لا يحقق هذا كل ما يتمناه الإنسان لنفسه، لكن النية الحسنة حقيقية. يصير ممكنًا الإقرار بالمزايا والحسنات التي هي غير بارزة كثيرًا، وتصير المسرّات الأكثر «هدوءًا» الناجمة عن وجود الاثنين معًا موضع تقدير.

يعني الوقوع في حب العمل من جديد أننا فهمنا ما كان في الوقوع الأول في غرامه من خلل. نصير قادرين على الإقرار بأن ما من عمل يمكن أن يحقق لنا ما نريد، لكن عملنا يظل قادرًا على امتلاك الكثير مما نعتز به ومما يسعدنا.

هـ - عمل جيّد بما فيه الكفاية

يبدو أمرًا فظيعةً بعض الشيء قولنا للناس (أو لأنفسنا) ألا يبالغوا في الطموح. أو ليس من الممكن أن يكون قولنا هذا أمرًا كريهًا، أو دعوة إلى الهزيمة؟ بطبيعة الحال، هذا ما يكونه بعض الأحيان. وأما في لحظات أخرى، فقد يكون نصيحة على قدر

كبير من الحكمة والسخاء لأنها تحاول مقاومة أسلوبنا الغريب في مهاجمة أنفسنا ظلمًا لأننا لم نستطع تحقيق غايات أو مثل تخيلناها.

كان أول من طرح هذه الطريقة في «تقويض» نزوعنا الطائش إلى الكمال عالم النفس البريطاني دونالد وينكوت في خمسينيات القرن العشرين. كان وينكوت متخصصًا في العلاقات بين الأطفال وأهلهم. كثيرًا ما كان يلتقي في عيادته آباء وأمهات يبذلون أقصى الجهد في توفير كل شيء لأطفالهم، لكنهم يعيشون حالة من اليأس والقنوط. كان الآباء والأمهات غاضبين، وكانوا محبطين، لشدة البعد بين مثلهم وبين مجريات حياتهم العائلية: قد يكون أطفالهم انطوائيين أو مشاغبين؛ وقد يكون الأهل مرهقين أو سريعى الغضب. في أحيان كثيرة، تتحوّل الآمال إلى يأس مقيم.

فكرة وينكوت ذات الأهمية البالغة هي أن «عذاب» الأهل ناجم عن سبب بعينه: يبذلون جهدًا أكبر مما ينبغي. وحتى يساعدهم، ابتكر طريقة رائعة عملية جدًا دعاها «الأهل الجيدون بالقدر الكافي». كان مصرًا على أن الأطفال ليسوا في حاجة إلى أب مثالي ولا إلى أم مثالية. إنهم في حاجة شديدة إلى أهل لا بأس بهم، أهل مقبولين، أهل لديهم مقاصد حسنة، أهل يُبدون لهم، بشكل عام (لكن ليس دائمًا)، قدرًا من الدفء والتعامل المنطقي. ليس هذا لأن وينكوت واحد ممن يرضون بأي شيء، بل لأنه أدرك أننا في حاجة إلى أن نتعلّم

كيف نتلاءم مع النواقص كي نصير أقوياء، متوازنين، قادرين على التحمل (هذا طموح كبير في حقيقة الأمر)، وكيف نقاوم ميلنا إلى تعذيب أنفسنا بمحاولة أن نكون ما لا يستطيعه أي بشري عادي.

لقد ابتكر وينكوت مفهوم «جيد بما فيه الكفاية» كي يمنح اعتبارًا لفشل المرء في تحقيق فكرة مثالية مُعذّبة لا طائل منها. يشير هذا المفهوم إلى أن الجزء الأكبر مما هو مهم حقًا يجري على مستوى أدنى كثيرًا من مستوى «الخلو من أية عيوب أو مشكلات». كان وينكوت يحاول إخبار الآباء والأمهات بأن «جيد بما فيه الكفاية» هدف أكثر تعقُّلاً، وبالتالي أكثر قابلية لأن يتحقّق.

إذا تذكّرنا نصيحة وينكوت هذه التي وجّهها إلى الآباء والأمهات نصير قادرين على تنمية فكرة مفيدة، فكرة «العمل الجيد بما فيه الكفاية». نجد في العمل الجيد بما فيه الكفاية مجموعة العيوب المألوفة دائماً: عمل يكون مضجراً قليلاً بعض الأحيان، وفيه جوانب حزينة أو محبطة، ويشتمل على فترات من القلق والتوتر؛ وهو أيضاً عمل يجعلك مضطراً إلى تقبّل أن يقيّمك أحياناً أشخاص لا تحترمهم كثيراً، ولا يستفيد استفادة تامة من مزاياك كلّها، ولا يصل بك أبداً إلى تكوين ثروة. بل إنك تجد نفسك أحياناً مضطراً إلى «تدوير الزوايا» عندما لا تكون راغباً في ذلك. عليك أيضاً أن تكون مهذباً مع أشخاص مزعجين بعض الشيء، وأفكارك الممتازة لا يؤخذ بها دائماً؛ وثمة منافسون من الممكن جداً أن يسبقوك؛ وتمر

بك أيام تسأل فيها نفسك كم كنت غيبًا حتى تورطت في هذا العمل أصلًا.

لكنك ستجد وجوهًا إيجابية كثيرة في عمل «جيد بما فيه الكفاية». سوف يصير لك أصدقاء مقربون. وسوف تعيش أوقاتًا فيها إثارة حقيقية. وسترى في حالات كثيرة أن جهدك المخلص يلقي مكافأة ويكون موضع تثمين. وسوف تكون قادرًا على تقدير قيمة الاتجاه العام لما تنجزه ولما ينجزه بقية زملائك. وفي حالات كثيرة، سوف تكون مرهقًا آخر النهار، لكنك ستحس بأنك أنجزت شيئًا.

من المستبعد جدًا أن تحظى بثناء عامة الجمهور؛ ولن تصل أبدًا إلى أعلى القمم؛ ولن تغير العالم بمفردك؛ وسوف يسقط عنك قسم كبير من الخيالات والأوهام عما سيكونه مسارك المهني، لكن سقوطه سيكون لطيفًا. وسوف تعرف أنك تعمل بكرامة وشرف وأنت «تحب عملك بما فيه الكفاية» على نحو هادئ، ناضج، غير حالم، لكنه حقيقي تمامًا. وهذا إنجاز كبير جدًا في حد ذاته.

مكتبة

t.me/soramnqraa

مدرسة الحياة منظمة عالمية تعين الناس على عيش حياة أكثر إشباعًا. فمن خلال مجموعة الكتب والهدايا ومستلزمات القرطاسية، نحاول تعزيز طبائع أعمق تفكيرًا ونساعد الجميع في العثور على حياة مشبعة راضية. مدرسة الحياة مورد لاستكشاف العلاقات ومعرفة الذات والعمل والعشرة الاجتماعية والعثور على الهدوء والاستمتاع بالثقافة من خلال ما توفره من محتوى وتواصل. يمكننا أن نجدونا على الانترنت وفي المكتبات، وكذلك في أماكن مضيافة في أنحاء العالم تقدم دروسًا ومناسبات وجلسات معالجة فردية.

تشهد مدرسة الحياة نموًا عالميًا سريعًا، ولديها ستة ملايين مشترك عبر You Tube، ويتابعها 351000 شخص على Facebook و218000 على Instagram و163000 على Twitter. تجمع كتب «منشورات مدرسة الحياة» أفكار فريقها المبدع العامل تحت إشراف محرر المجموعة آلان دو بوتون. وتشارك الكتب كلها في بث رسائل متسقة منتقاة ناطقة بصوت واحد: الهدوء والطمأنينة والتعقل.



telegram @soramnqraa

ليست فكرة أن العمل يمكن أن يكون فيه إشباع وتحقيق للذات، وأنه أكثر من ضرورة، إلا "اختراعاً حديثاً". في زماننا هذا، لا تقف آمالنا عند حد تلقي أجر لقاء عملنا، بل ننتظر أيضاً أن نجد فيه معنى ورضاً وإشباعاً. هذا تطّلع كبير جداً، وهو يفسّر كثرة أعداد من يعيشون "أزمة هوية" في حياة العمل.

إن كتاب "عملٌ تحبه" مصمّم ليساعدنا في التوصل إلى فهم أنفسنا فهماً أفضل بغية العثور على عمل مناسب لنا.

بمزيج من العاطفة والروح العملية، يرشدنا هذا الكتاب إلى اكتشاف قدراتنا ومواهبنا الحقيقية وإلى فهم ما نشعر به من تشوش وتطلّع ورغبات... قبل أن يفوت الأوان.

مدرسة الحياة منظّمة عالمية تعين الناس على عيش حياة أكثر إشباعاً. إننا نحاول تعزيز طبائع أعمق تفكراً، ونساعد الجميع في العثور على حياة مشبعة راضية. مدرسة الحياة مورد لاستكشاف العلاقات ومعرفة الذات والعمل والعشرة الاجتماعية والعثور على الهدوء والاستمتاع بالثقافة من خلال ما توفّره من محتوى وتواصل. يمكننا أن نجدونا على الانترنت وفي المكتبات، وكذلك في أماكن مضيافة في أنحاء العالم تقدّم دروساً ومناسبات وجلسات معالجة فردية.

470 يوم

غزة

السور

مدرسة الحياة THE SCHOOL OF LIFE